الاستشراق

تعريفه

أهدافه

القديمة والحديثة

بقلم الدكتور المحامي:
أحمد عمران الزاوي

تعريفه:

هو مأخوذ من لفظة (الشرق)

فالتشريق والاستشراق، هو الأخذ في ناحية المشرق. وشرَّقوا: أي ذهبوا الى الشرق.

وقد كان الشرق يعني جغرافياً: البلدان التي تقع شرق أوروبا وجنوبَها. (البلدان العربية) و(البلدان الإفريقية) و(الدول الآسيوية الشرقية).

غير أن الاستشراق، أخذ حجومه (الجغرافية) و(السياسية) من اهتمام المستشرقين، فكان حتى وقت قريب يعني، أسماء قاموسية ثلاثة:

الشرق الأدنى: كان يطلق على الدول الواقعة شرق المتوسط وهي (تركيا، سوريا، لبنان، فلسطين، شرقي الأردن).

وقد ظلت (لبنان وفلسطين وشرقي الأردن) جوارح في الجسد السوري حتى بترتها عنها معاهدة (سايكس بيكو).

الشرق الأقصى: كان يطلق على آسيا الشرقية (الصين، الهند، الفلبين، الهند الصينية، أندونيسيا، شرق روسيا).

الشرق الأوسط: صار يطلق حديثاً على (بلدان الشرق الأدنى، وإيران، وشبه الجزيرة العربية، والعراق).

أما التسمية الرابعة: (الشرق الأوسط الجديد، والشرق الأوسط الكبير) فقد طرحت طرحاً حديثاً في كتاب أصدره (شمعون بيريز) في عام ١٩٩٤ تحت اسم (الشرق الأوسط الجديد).

وقد أخذ هذا الاسم أبعاده السياسية والجغرافية أثناء حرب المقاومة اللبنانية ضد الغزو الإسرائيلي، عندما حضرت وزيرة خارجية أميركا السيد كونداليزارايس، وأعلنت على مسمع اللبنانيين والعالم أجمع من دار السفارة الأميركية في بيروت وبين لفيف من

الساسة اللبنانيين الذين جمعتهم إلى مائدة السفارة وقالت:

"هذه الحرب، هي حالة من المخاض التي تمر بها المنطقة وسوف تتكشف عن مولود جديد هو (الشرق الأوسط الكبير).

هذا التقسيم الثلاثي والرباعي للشرق الأوسط كان قد طرحه هيرتزل في مؤتمر بال بسويسرة عام ١٨٩٧م حينما قال أمام المندوبين:

"تريد شرقاً أوسط، متحرراً من الأتراك، ولكن المجزَّأ إلى دويلات وأقاليم لا تستطيع الاتحاد ضدنا"

كما برزت في الآونة الأخيرة تحركات سياسية ذكَّرت الناس وخاصة هذه المنطقة باتفاقية سايكس بيكو (جزَّأت، وسلخت، وأضافت) مع فارق جوهري هو أن التحرك الحديث: شمل الشرقين الأدنى والأقصى، مضافاً إليهما دول تمتد بعدهما في مخطط، يجعل من الدول إياها بما فيها الشرقين، مسوخاً سياسية، أو دولاً من الخرز عاصمتها السياسية والعسكرية والاقتصادية إسرائيل.

آمال، كانت عريضة وبعيدة، وعميقة، ولكن حرب المقاومة في لبنان أسقطتها جميعها، فبقوة المقاومة، وصلابة إيمانها الوطني، خرج الجيش الإسرائيلي من لبنان، لابساً لباس العار.

وفي داخل إسرائيل:

- سقط وزير الدفاع بيريس.
- وسقط رئيس الأركان حالوتس.
- وضاق خناق التحقيق حول رقبة رئيس الوزراء.
- وبوش ووزيرته اللذان شاهدا جنين (الشرق الأوسط الكبير) في اليوم الثالث من الحرب، فوجئا به يخرج من رحم أيام الحرب (خديجاً) فاقداً للحياة.

الاستشراق في التاريخ:

من المعلوم أن الإسلام انطلق في سنة ٦١٠م من قرية في الجزيرة العربية اسمها مكة، بدعوة من رجل أمي هو محمد بن عبد الله الذي كان قد بلغ الأربعين.

بدأ العصر الراشدي بخليفته الأول عبد الله بن أبي قحافة أبي بكر الصديق في السنة الحادية عشرة للهجرة، وانتهى بمقتل علي بن أبي طالب الخليفة الرابع.

في سنة ٦٦١م أي ظل العهد الراشدي ٢٩ عاماً، خلاله انتشر الإسلام فعمَّ الجزيرة، وبلاد الشام، وفارس، ومصر.

ثم تلاه العصر الأموي الذي امتد من ٦٦١ - ٧٥٠م، بدءاً بمعاوية بن أبي سفيان وانتهاءً بمروان الثاني الذي هُزِمَ في معركة (الزاب الكبرى) سنة ٧٥٠م، ففر واختبأ، ولكن عثر عليه وقتل في آب من تلك السنة.

منذ أن تكررت الحملات الأموية على بيزنطة، تحول الخلاف بين العرب المسلمين والأوروبيين إلى عداء حقيقي خاصة بعد أن ثبت أن تلك الحملات كانت تستهدف أوروبا الجنوبية.

أما الحكم الأموي في الأندلس فقد بدأ على يد عبد الرحمن حفيد هشام بن عبد الملك، المدعو عبد الرحمن الداخل الذي هرب من العباسيين ودخل وحيداً إلى قرطبة ما لبث أن تسلل إلى قناعات الناس، فتمدد إلى أكثر بقاع إسبانيا مبتدئاً من سنة ٧٥٥م حيث دامت خلافة الأمويين في الأندلس سبعماية وخمسة وثلاثين سنة إلى أن طردوا منها في عام ١٤٩٢م على عهد وملكية الملك الصغير وهو آخر ملوكهم.

لقد انتهى الحكم الأموي بسقوطه وحفظ التاريخ عنه ذلك البكاء المرير بين يدي أمه نادباً تاجه وعرشه، كما حفظ التاريخ ذلك البيت الشعري الذي قابلته به وهو:

ابك مثل النساء ملكاً مُضاعاً

لم تحافظ عليه مثل الرجال

أما العباسيون الذين استولوا على الجغرافيا الأموية في الشرق فقد امتد حكمهم حتى ١٢٥٨ أي إلى السنة التي احتل فيها هولاكو مدينة بغداد.

في خواتيم القرن الحادي عشر انطلقت الحرب الصليبية من أوروبا إلى الشرق، حملة في إثر حملة مدفوعة بغيظ استمر متأججاً في الصدور منذ أن اجتاحت عاصفة الإسلام مصر وسوريا وآسيا الصغرى.

لقد مزَّق الغيظ جدار الصمت في سنة ١٠٠٩م حينما صار هدم كنيسة القيامة في عهد الحاكم بأمره وهي من أقدس الأماكن التي يحج إليها مسيحيو الأمم.

كذلك نفد الصبر في النفوس، على أثر المضايقات التي كان يعاني منها الحُجَّاج الأوروبيون أثناء زياراتهم للأماكن المقدسة.

تلك كانت قبضة من الأسباب التي اعتمدت عليها خُطَبُ البابا أربانوس النارية التي نثرها في المدن الأوروبية على مدى تسعة أشهر (تور، بوردو، مونبيلية، تيمر، كليرمونت).

وفي كليرمونت تجمع الناس من شتى الجهات غير عابئين ببرد تشرين، فنصبوا خيامهم في العراء لكي يستمعوا إلى خطبة البابا أربانوس.

قال ديورانت، وهو مؤرخ أميركي يهودي:

"كانت خطبة البابا أربانوس في كليرمونت أعظم خطب القرون الوسطى وأقواها أثرا في تاريخ الشرق والغرب..".

وقد سجل منها فقرات نوجز بعضها كالآتي:

"يا شعب الفرنجة، شعب الله المحبوب المختار، لقد جاءت من تخوم فلسطين ومن مدينة القسطنطينية أنباءَ محزنة تعلن أن جنساً لعيناً، أبعد ما يكون عن الله طغى وبغى في تلك البلاد.

على من تقع تَبعةُ الانتقام من هذه المضايقات والمظالم إن لم تقع عليكم؟

ألا فليكن لكم مَن أمجاد شارلمان وأعمال أسلافكم ما يقوي قلوبكم".

ما إن أنهى خطبته حتى علت أصوات الجماهير مثل الرعد بعبارة: "هذه إرادة الله".

لأول مرة سادت الأخوة في أوروبا.

ولأول مرة صار الجهاد ضد أعداء الكنيسة نقطة الالتقاء بين الجميع وصار البابا أربانوس يُعرَف في أوربا بـ(السيد المرتضى)، على أن مدينة القدس، شاهدت أقسى وأدمى تطبيق لتحريض أربانوس...

صور ثلاثة، أو فتوح ثلاثة مرت على مدينة القدس:

الأولى: على يد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب.

الثانية: على يد الصليبيين، بقيادة (جودفري وتانكرد).

الثالثة: على يد صلاح الدين الأيوبي.

قال ديورانت في ص ٧٦ من المجلد (١٣ - ١٤) من قصة الحضارة:

"وافق صفرونيوس بطريق القدس على تسليم (إيليا- بيت المقدس) إذا جاء الخليفة وصدَّق بنفسه على وثيقة التسليم، فقبل عمر هذا الشرط وجاء من المدينة المنورة إلى (إيليا) حيث دخلها كما يقول ديورانت ببساطة دونها كل فخامة في التاريخ. كان يحمل عدْلاً فيه شيء من الحبوب وكيساً من التمر ووَعاء ماء، وصحفة من الخشب. وحينما استقبله القادة (خالد، وأبو عبيدة وغيرهم) بثيابهم المهفهفة وسروج خيلهم المزركشة، تناول قبضةً من التراب والحصى ونثرها عليهم وهو يقول: شاهدت الوجوه، استنكارا وغضبا من

هذه المظاهر التي لا تتفق مع الجوهر الإسلامي. ثم قابل صفرونيوس بمنتهى الوداعة والتواضع والمجاملة، ولم يفرض غير القليل من الجزية. وظل في القدس عشرة أيام، غادرها بعد أن أمَّن لسكانها جميعاً حرية العمل وممارسة الطقوس الدينية والاجتماعية.

في ص ٢٥ من المجلد الأول (١٥-١٦) قال ديورانت:

"بعد ٤٥٧ عاما صار افتتاح القدس - إيليا من قبل الصليبيين. ويكفي لوصف عملية الفتح أن نستعيد ما قاله القس الإنجيلي شاهد العيان: "شاهدنا أشياء عجيبة، إذ قطعت رؤوس عدد كبير من المسلمين وقتل غيرهم رمياً بالسهام أو أرغموا على أن يلقوا بأنفسهم من فوق الأبراج، وعذب بعضهم عدة أيام ثم أحرقوا بالنار وكنت ترى في الشوارع أكوام الرؤوس والأيدي والأقدام وكان الإنسان يسير أينما سار فوق جواده بين جثث الرجال والخيل".

وتابع ديورانت: ويروي غير الإنجيلي من المعاصرين تفاصيل أدق عن تلك المجزرة فيقولون وهم كثيرون: "إن النساء كنّ يقتلن طعناً بالسيوف والحراب. والأطفال والرُضَّع يُختطفون بأرجلهم عن أثداء أمهاتهم ويقذف بهم من فوق الأسوار أو تهشم رؤوسهم بالعُمُد. وذبح السبعون ألفاً من المسلمين الذين ظلوا أحياء بعد الفتح".

ملاحظة: هذا الوصف ورد أيضاً في ص ١٩٤ وما بعدها من الجزء العاشر لابن الأثير، وص ٢١ من الجزء الخامس من ابن خلدون.

وفي ص ٣٧ من قصة الحضارة مجلد (١٥-١٦) تحدث المؤلف عن فتح القدس على يد صلاح الدين الأيوبي قال:

"بعد أقل من مئة عام. وبالضبط في سنة ١١٨٧ احتل صلاح الدين مدينة (إيليا) وحررها من الصليبيين، فقد استولى عليها دون أن تراق فيها نقطة دم. حتى إن أخاه العادل، طلب أن يهدي إليه ألف عبد ممن لا يملكون مقابل الفداء. وبعد الإهداء أعتقهم جميعاً دون لقاء. كما إن صلاح الدين أعتق جميع الأرقاء وكانوا خمسة عشرة ألف رقيق، ولم يطلب منهم ولا من سواهم الدخول في دين الإسلام، خوفاً من أن تكون الاستجابة استكراهاً يرفضه الدين. ووزع من ماله الخاص على النسوة اللواتي قتل أزواجهن"

ملاحظة: ورد ذلك أيضاً بالتفصيل في ص ٧٣٨ وما بعدها من تاريخ العرب لفيليب حتي ورفيقيه إدوارد جرجي وجبرائيل جبور.

بعد الفشل الصليبي الذي منيت به الحملات العسكرية المتتالية على بلاد الشرق التي امتدت مئتي عام. عاد الأحياء إلى بلدانهم الأوروبية حاملين ثابتتين:

أولاهما: أطنان من العلوم والمعارف والكتب العربية ونماذج العيش وأصول الزراعة والصناعة والتجارة. التي كانت تفتقر إليها أوروبا، والتي كانت فيما بعد أول أبجدية الحضارة الغربية.

الثانية: القناعة المطلقة أنهم هُزموا في بلاد الشرق على يد الشعب الذي لعنوه ووصفوه بالنجاسة والإلحاد.

والأماكن المقدسة التي حاربوا من أجلها مئتي عام، عادت إلى الأيدي التي كانوا يتقززون منها ومن أصحابها.

"لقد تناقلت الأجيال قولهم: إن الدم لا يموت. وسوف يظهر من ينتقم له. والحال لن يدوم فدوامه من المحال وحينما تتبدل الظروف سوف يغسل الثأر دماء العار التي نزفت في بلاد الشرق".

تراخت القبضة العثمانية:

- فانفرط الشمال الإفريقي.
- والعلاقات مع الأقاليم الآسيوية أصيبت بالهرم والشيخوخة، وتراخي الأعصاب.

- وفي أوروبا سقطت أسنان الشيخ العثماني.
- وافترس مرض التخلف والشيخوخة جميع جوارح الجسد العثماني.

تبعاً لذلك. بل ونتيجةً حتمية له بدأ الشرق يتدهور إلى الحضيض وتتساقط شرفاته واحدة تلو الأخرى وبدأ الغرب، يقفز قفزاً على طريق الحضارة.

لقد جاء زمن الثأر الذي انتظره الغرب.

درس الأمور، جغرافياً، وتاريخياً، وسياسياً فتحصّل لديه ما يلي:

إن حالات (الجهل والتخلف والأمية والتشرذم) التي خلّفها وراءه الحكم العثماني المظلم، هي الظروف التي انتظرها طيلة القرون السابقة، لكي يقوم بالثأر لما أصابه من هزائم.

هذه الجغرافيا التي تنساح على مدى أربع عشرة مليون كيلو متر مربع، يقطنها قوم يتكلمون بلغة واحدة وبدين أكثرهم بدين واحد وقد عاشوا وحدتهم قروناً عديدة، ماذا سوف يحل بالغرب المنتشر في أصقاعه إن زال جهله ومحيت أميته وقامت وحدته، إنّ ضمان البقاء الغربي متربعاً على صدر هذا الشرق، مرهون ببقاء الحال دون تطوير. مما يحتم على الغرب أن يحول دون التطور بجميع الوسائل. فالتطور والتحضر والوحدة هي الأعداء اللدودة لهيمنة الغرب.

هذه الأفكار السوداء كانت دوافع مؤتمر لندن في ١٩٠٦، لقد جالت تلك الأفكار في رأس كامبل بنرمان رئيس الوزراء بريطانيا فدفعه هذا التخوف إلى إقامة مؤتمر لندن إذا دعا إليه الدول الأوروبية ذات المصلحة. وألقى فيهم خطاباً بيّن فيه خطورة الأمور إذا ما تغيرت أحوال هذا الشرق، وامتلأ بالحضارة والتطور.

وطلب من المؤتمرين أن يتفقوا على خطة عملية تبقي على هذا التخلف المتعدد في الشرق أكبر قدر من الزمن.

ونظراً لخطورة الموضوع وبُعْد أبعاده، استدعى المؤتمرون عدداً من المختصين في علم الاجتماع، والتاريخ، والجغرافيا، والفلسفة، وطلبوا منهم أن يدرسوا هذا الأمر دراسة معمقة، وأن يضعوا التقرير الملائم. فانفرد المختصون واعتزلوا ستة أشهر مكبّين خلالها على دراسة الأمور وتقليبها على شتى وجوهها.

بعد تلك المدة خرجوا بتوصيات، تسبقها المقدمة التالية: إن أوروبا لا تخشى أي خطر إلاّ من البحر الأبيض، الذي يتوسط القارات الثلاث ومن جنوبه وشرقه:

- يمتد طريق بريطانيا إلى الهند.
- وطريق فرنسا إلى جاوه وسومطره.
- وطريق هولانده إلى أندونيسا.

وفوق هذا، فعلى سطح هذا الشرق وفي أحشائه ثروات من المعادن والنفط والغاز لا تنفد. شعبه الولود، الذي يتضاعف كل قرن هو مجموعة هائلة من الأفواه المستهلكة.

لذلك اقترحوا التقيد بالوصايا التالية:

- السهر الدائم على بقاء الجهل والأميَّة والتخلف، صفات ملازمة له ولصيقة به، يستحيل فكاكها عنه.
- وتشجيع التجزئات الثقافية والدينية والسياسية ودعم ظروفها بل وخلق هذه الظروف حينما تقتضي الأمور.
- مقاومة أي نزعة وحدوية بين أقطاره بشتى أنواع المقاومة والسهر على الإبقاء عليه مشرذماً.
- الوحدة بين أقطار هذا الشرق، هي ألدّ أعداء الغرب.

لأنهم وجدوا في التاريخ:

- أن وحدة الجيش السوري والمصري تحت قيادة صلاح الدين والتقاءهما المباشر هو الذي حقق (حطين).
- وهو الذي حقق بعد مئة عام (عين جالوت).
- وهو الذي حق وحدة القطرين برئاسة عبد الناصر.

لذلك اقترحوا أن تقوم الدول الغربية بعملية ذبح جغرافي، تفصل الرأس العربي الآسيوي عن الجسد العربي الإفريقي.

وأن يركم في الفراغ، جنس بشري يختلف مع شعب المنطقة في اللغة والجنس والتاريخ.

وأن الجنس الذي تتوافر فيه هذه الصفات، هو الجنس اليهودي.

* * *

مع أن هذا التقرير احتُفظَ به في أرشيف الوزارة لخطورته، فقد تَسرب إلى اليهود، الذين حملوه فوق الرؤوس، واعتبروه أول ربط استراتيجي بينهم كشعب يسعى إلى إيجاد أي مكان تحت الشمس يستطيع أن يحكم فيه نفسه بنفسه فكيف إذا كان هذا المكان فلسطين التي نشأت اليهودية في ربوعها، وعاش فيها أكبر ملوك اليهود وأكثر أنبيائهم.

لقد تذكر اليهود نداء نابليون الأول ونابليون الثالث، واستعادوا في ذاكرتهم جبال الموانع السياسية التي حالت دون نداءي النابليونين. ولكن الأمور اختلفت، والظروف تغيرت، وها هي فلسطين تقدم إليهم من دول الغرب على طبق من الفضة.

الغرب لا يطلب منهم غير مراقبة القناة والمضايق، وإشعال الحرائق لقاء توطيد وجودهم في فلسطين، وتمليكهم أملاك ومنازل ودواجن الفلسطينيين، وطردهم منها.

لقد أفسح الغرب لهم كي يتكاثروا ويتجمعوا من أقصى الأرض وأن يتراكموا في فلسطين، فوجودهم كدولة، بمقدار ما هو حق لهم على الغرب، واجبٍ عليهم تجاه الغرب، وهو أن يكونوا حراساً لمصالحه بأنياب حادة ومخالب ممزِّقة مؤتمر لندن الذي تحدثنا عنه هو:

- وإن وُضِع فور صدور قراره في الأرشيف.
- فقد كان مخلوقاً ذا رؤوس متعددة كأنها رؤوس الشياطين.
- فالزحف على الشرق.
- واقتراحات كرزون في سنة ١٩١١.
- ووعد بلفور.
- واتفاقية سايكس بيكو.
- ومقررات بلتيمور.
- وقيام دولة إسرائيل، وقيام الغربيين، بإغداق الأموال والسلاح والسياسة عليها، وتخصيص الفيتو الأميركي لحماية ارتكاباتها.
- وما جرى ويجري في فلسطين، والعراق، ولبنان، وأفغانستان.
- وما هو في رحم الأحداث والظروف بالنسبة إلى سوريا وإيران وحزب الله.

إنما هي رؤوس شيطان الاستشراق اللندني.

وليس ذلك فحسب، أي لم يقف التدخل الاستشراقي عند حد معين، بل جميع ما يجري في الشرق سياسةً واقتصاداً وجيشاً وأمناً، مسقوف بالخطوط الحمراء التي رسمها المؤتمر الاستشراقي في لندن، وهي الجهل والأمية والقطرية والكانتونات داخل القطر.

- إن تقسيم العراق إلى (دولة كردستان) و(دولة شيعستان) و(دولة سنستان) والاقتتال الطائفي في لبنان.
- وتقسيم السودان إلى شمال وجنوب ومصر، إلى مسلمين وأقباط.

- وما هو مخبأ للسعودية.
- وما يجري في اليمن. والبحرين والشارقة والكويت.

إنما هي فصول استشراقية أراد بها الغرب أن تكون مصدات طبيعية ضد خالد جديد، أو صلاح الدين أو بيبرس.

فهو دائم الحذر من تلك الأيديولوجية التي جعلت من أكلة الضب والجراد واليربوع الحفاة العراة الرعاة، قادة الأمم ثمانية قرون في العلم والفن والحكم.

حَذَرُهُ هذا جعله يتقلب مع ظروف التطور. ولكنه بقي ضمن الدائرة التي وضعها قرار لندن. فمنذ مطالع القرن العشرين دار الاستشراق دورة كاملة، حيث هجر روح الثأر والعداء التي سادت أيام الحروب الصليبية.

وحينما تبحَّر في أسباب الاكتساح الإسلامي، عقيدة وسيفاً، ووجد أنها نتيجة منطقية لذلك الإيمان الذي ملأ الصدور والذي أقنع المؤمنين، بأن الاستشهاد في سبيل الحق، هو أقرب الطرق إلى الجنة:

- عكف على محو تلك الروح.
- عكف على تقزيمها والاستهزاء بها.
- وأشاع في أدبياته، أن العرب الشرقيين دخلوا التاريخ في غفلة من التاريخ، كانوا جوعى، عراة، حفاة، مرّوا على حضارات الأمم مرور الأعاصير، قلعاً وخلعاً وهدماً، وإقصاءً وإطفاء.

وكانوا في انسياحهم الوبائي يرددون ما جاء في كتابهم:

"كم تركوا من جنات وعيون. وزروع ومقام كريم" ونعمة كانوا بها فاكهين.

المصنفات الغربية الطامعة والحاقدة. كانت منهلاً لراغبي الغرب في التعرف على الشرق، من خلال تلك المصنفات.

الرئيس الأميركي دبليو بوش حرّض الآخرين على معرفة الشرق من استعادة قراءة الصورة المشوهة التي رسمها هو وجلاوذته. والتي فيها وجه شيطان عربي إسلامي اسمه الإرهاب.

قال بوش. وقال موظفون وتابعوه. الإرهاب الذي هو القتل والتدمير والتفجير والاغتيال إنما هو صناعة إسلامية بامتياز.

لذلك: ينبغي على الغربيين أن يتخذوا من الاحتياطات ما يلزم لكي يكونوا بمأمَن من الوباء. خاصة، وإن الاستشراق أي امتصاص ثروات الشرق. في هذا الجو المشحون، شرّ لا بد منه، لأنه حاجة حياتية ولكن العارفين في الشرق والغرب قالوا: بوش وجلاوذته إما إنهم جاهلون وإما إنهم كاذبون.

ففي الإسلامي وفي المسيحية، يعتبر القتل والفساد في الأرض من أكبر الكبائر.

- لقد نادى المسيح بمحبة الأعداء فقال: ((أحبوا أعداءكم، باركوا مبغضيكم، صلوا لمن يطردونك ويسيئون إليكم)).
- والإسلام قال قرآنه: ((من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض، فكأنما قتل الناس جميعاً)). وجاء في الأنفال: ((وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوّ الله وعودكم..)).

فقد غنى بالإرهاب (التخويف) وليس القتل كما عنى بوش ورفقاه.

لقد حضّت على الظهور تجاه القادم المقاتل، بمظهر القوة، التي تدخل الرهبة في نفس العدو فيتوقف عن ممارسة الاعتداء.

فإن فعَل التخويف فعله، واقتنع العدو أن المسالمة خير له من المواجهة قالت الآية التالية من الأنفال، قولا بصيغة الأمر للمسلم والعربي: ((وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم))

حتى القتل الإسلامي:

- لا يكون إلا دفاعا عن النفس أو العرض أو المال.

- أو في جزاء القاتل الذي قتل عامداً، دون نفس أو فساد في الأرض.
- كما لا يكون إلاّ بالمثل، فتجاوز التماثل هو اعتداء والله لا يحب المعتدين.

هذا النوع، ليس الأرهاب، وليس ما قاله بوش ورفقاه، بل هو الذي أقرته شرائع الأمم، حيث اعتبرته مشروعاً إذا تمَّ دفاعاً عن النفس، أو الأسرة أو المال أو الوطن أو وقع جزاء القاتل العمد..

* * *

جميعه استشراق:

- الحروب الصليبية.
- الغزو النابليوني.
- الاستعمار الحديث – خطة مؤتمر لندن.

لم تختلف تلك الصور إلاّ في الحجة والتبرير.

فالحجة الصليبية: كانت دينية بحتة، جاءت إلى الشرق بحجة استرداد الديار المقدسة.

والحجة النابليونية: كانت بسط الهيمنة والسلطان وتكوين إمبراطورية شرقية.

أما الحجة الحديثة: فهي الاستيلاء على ثروات الشرق، وامتصاصها حتى القشور.

قال المفكر اللبناني الأصل الأميركي الهوية، إدوار سعيد في مقدمة كتاب الاستشراق: "إنني أؤمن بأنه ليس في وسع أحد أن يكتب عن الشرق أو يفكر فيه أو يمارس فعلاً، متعلقاً به أن يقوم بذلك دون أن يأخذ بعين الاعتبار أن الشرق بسبب الاستشراق لم يكن موضوعاً حرّاً للفكر والعمل..".

ويتابع: "الاستشراق يشكّل شبكة المصالح الكلية التي يُستحضَر تأثيرها بصورة لا مفرَّ منا، في كل مناسبة يكون ذلك الكيانُ العجيب – الشرق – موضوعاً للنقاش".

ويقول الدكتور عبد النبي صطيف في مقال نشرته مجلة المعرفة بعدد أيلول ٢٠٠٦: "يختلف الناس في تعريف الاستشراق وتحديد أهدافه ووظيفته وصلاته بنشاط الإنسان" "الاستشراق بوصفه معرفَة ينتجها الآخر الخارجي (الغرب) عن الشرقِ وأهله (تواريخ أو ثقافات أو مجتمعات، دولاً وقضايا راهنة) بلغة غير لغتهم تحفزه الرغبة في مساعدة مجتمعه على حماية مصالحه القريبة والبعيدة من أية علاقة يقيمها مع الشرق على أي مستوى وفي أي وجه".نعم، وبقوة الواقع نقول: تلك الروح، الشديدة في حذرها، المنهومة في أطماعها، لم يغير الزمن منها غير الثياب. حيث ظلت تتسلسل، إرثاً وتوريثاً، إلى يومنا حيث نعيشها اليوم بإهابها الجديد.

لذلك نكرر ما قلناه سابقاً، وهو أنَّ المستشرقين طووا فِي خطابهم وتصرفاتهم خطاب الماضي، فخفت صوت التهديد بالسطو العسكري. وامّحت عبارات العنف التي كانت تمارسها الجيوش، وشاع بدلاً عن ذلك خطاب يؤكد الغرب فيه للشرق أنه يحمل إليه أطناناً من الحضارة والتطور والثقافة وديموقراطية الحكم.

ومع هذا التغير الماكر تَندُّ من حين إلى حين من هذه الجهة أو تلك ما يؤكد على أن حقيق المشاعر هي أن "الغرب غرب والشرق شرق ولن يلتقيا".

هنا صُحفُ تتهكم بالصور الكاريكاتورية على شخصية ابن عبد الله الاستثنائية بين الخلق وهنا رجل كبير البابا بنديكتس السادس عشر، الحبر الأعظم في المسكونة تطفو عواطفه على سطح قلمه، فيضع الإسلام على منشار من النقد المتعصب المتخرب، ويتستَّر ناسباً ذلك إلى أحد أساطين التعصب في القرون الوسطى.

إن احتلال القدس: .

- بالعهدة العمرية.
- بالعهد الصليبي.
- وبعهد صلاح الدين.

من الوقائع التاريخية البارزة، التي لا يمكن افتراض نسيان البابا لها، وهي بالمنطق الحيادي العلمي تؤكد في القرون الوسطى ذاتها، أن المقارنة بين الغزو المتوحش الصليبي، والفتح السلمي الرحماني في أيام عمر وفي أيام صلاح الدين هي مقارنة غير عادلة، إن لم تأخذ بالحسبان الفرق النوعي.

* * *

مع أنني لست مؤرخاً، تقدمت بهذا السرد التاريخي المختصر لأبين فيه أن الزحف الغربي على الشرق كان محمولاً على الأسباب الآتية:

١- الدافع الديني الذي دفع بالحملات الصليبية لاستعادة الأماكن المقدسة من أيدي الكفار.
٢- الثأر العسكري للهزائم الصليبية، ورفع يدها عن الأماكن المقدسة، وقد قام بالحملة الأولى (نابليون الأول) وبالثانية (نابليون الثالث).
٣- التطور الصناعي في الغرب. وظهور النفط في بلدان الشرق كأقوى طاقة وأقل كلفة وأعظم مردود.

هذا السبب الأخير هو أهم الأسباب الذي تقوم عليه نظرية الاستشراق. إذْ منه وعنه، ظلت عين الغرب لا تنام عن إبقاء حالات الجهل والتشرذم والأمية والطائفية، كي لا تقوم قائمة لشرق عربي موحد يعيد إلى التاريخ العربي، نضارته وديناميكيته.

المطامع الاستشراقية، هي التي دفعت بثلث مليون جندي أميركي مدججين بالأسلحة حتى الأسنان وبين أيديهم الدبابات والراجمات ومن فوقهم الطيارات وتقابلهم في البحر، البوارج والحاملات.

عشرة آلاف ميل اجتازها الجنود لكي يعينوا بلداً لا يرتبطون معه بحدود أو لغة أو جنس أو تاريخ.

المطامع الاستشراقية، هي التي كتبت تلك المعاهدات المذلة بين الغرب الأميركي والشرق العربي المسلم.

فالغبي جداً وحده، فقط، يقتنع بأن خوف الولايات المتحدة على أمنها لا يزول إلاّ إذا قامت بينها وبين دول الخليج معاهدات عدم اعتداء.

الغبي وحده، فقط، هو الذي يقتنع بأن ترسيخ أقدام الحرية والديموقراطية في العراق، لا يتم إلاّ إذا أقامت فيه أميركا أربعمئة موقعاً عسكرياً وخمسين ثكنة.

ولكنه الشرق:

- الذي يجب أن يبقى أفواهاً تأكل ولا تتكلم.
- وأن يبقى ثروات منهوبة.
- وبينه وبين الحضارة قرون وقرون.
- وبينه وبين العلم والوحدة والتطور مسافات شاسعة.

هناك يتطلب منا واجب الإخلاص للحقيقة أن نذكر بالرسالة الرصينة التي وجهها إلى البابا صاحب الغبطة أغناطيوس الرابع هزيل بطريرك أنطاكية وسائر المشرق للروم الأرثوذكس. مننداً بخطبته مؤكداً له أن ما جاء في الخطبة عن المسلمين، بعيد عن الواقع الذي يعيشه المسيحيون.. حتى لكأن الرسالة حينما أكدت على التسامح بين المسلمين والمسيحيين في الشرق تشير رمزاً إلى ما يعانيه المسلمون في الغرب، حيث أودعوا في الدرجة الثالثة من قطار الحياة الغربية.




صوتها..

شعر الدكتور: عمر النص

أحلى من الكوثرِ هذا السرابْ
فليورقِ الصخرُ.. ويصحُ الترابْ

صوتكِ والأقدارُ جاءتْ مَعاً
فمُدَّ لي دربٌ.. وضاءتْ قبابْ

يا نَغْمةً تولدُ أنفاسُها
من فرحةِ اللُقْيا وشوقِ الغيابْ

هل ملَّتِ الأمواجُ أسفارَها
فأقبلتْ تسألُ أين المآبْ

كأنَّ في صوتكِ لمّا شدا
فراشةً تنفضُ عنها الحبابْ







يـــا غابـــــةً تهمــــسُ أشـــجارُها
هـــل هـــزّتِ الـــريحُ ضـــلوعَ الربـــابْ

صـــوتكِ في الليـــل يشـــقُّ المـــدى
فيـــزرعُ الخصـــبَ وراءَ اليبـــابْ

المـــاءُ والشـــمسُ هُنـــا غمغمـــا
فـــانهمر الزهـــرُ.. ومـــاجَ العُبـــابْ

كـــم لفظـــةٍ في الفـــمِ لَمْلمتُهـــا
فـــاعتنق الطيـــبُ رؤايَ العِـــذابْ

وامتـــزجُ الـــبرقُ بفيروزهـــا
وهـــاجرَ الرعـــدُ وغـــاب الضـــبابْ

يـــا حُلُـــمَ الأمطـــارِ! يـــا نَسْـــمَةً
تحمـــلُ لـــلأرضِ هِبـــاتِ الســـحابْ

في صـــوتكِ الأخضـــرِ واعَـــدْتِني
أوَّاهُ لـــو يصـــدقُ هـــذا الســـرابْ..




الحضارة و الفضيلة

بقلم: ندى عادلة

ما هي الحضارة؟! وقبل أن نقول ما هي الحضارة يجب أن نقول: أن يعرف الإنسان نفسه وأن تتعارف الأمم والشعوب في إنسانيتها وأن تعرف البشرية ذاتها ثالوث قيم في وحدة حضارية سندور في فلكها...

من صنع الحضارة وأين تقيم الحضارة أو الحضارات وكيف تنشأ؟!

ما هي حدودها وآفاقها من يصنعها ولمن يقدمها...؟!

ما هي حدودها؟! أين تكمن الفضيلة فيها وأين الشرر فيها..؟

هل الحضارة الإنسانية للإنسان ولصالح الإنسانية أم لتدمير الإنسان... وتدمير البشر..؟

أين الحضارة من العلوم المعاصرة ومن مستقبل البشر والأرض... لنبدأ بتعريف الحضارة كما عرفت وقبل تعريفها يجب أن نقر ونعترف بأن التقدم بوصفه مطلباً يمثل آفاق المطامح الإنسانية وهو مع الحضارة صنوان في دنيا المعاني والعمل.

الحضارة في الثقافة الغربية هي فعل التحضير أو صفة المتحضر والحضارة بهذا المعنى تدل على مفهوم يتصف بالتركيز الذاتي وهذا يعني أيضاً أننا ننتهي إلى أن المرء لا يرى الحضارة إلا في نفسه وفيما حوله، إنها الحال التي نعيشها والتي أبدعناها وصنعناها.

وقد أعلن مونتسيكو أن المثلثات لو صنعت آلهتها لمنحتها ثلاثة أضلاع ولم يظهر هذا التعريف إلا متأخراً في الثقافة الغربية أي في سنة ١٨٧٨.

الحضارة إقامة الأمة في جود فضاء الحضر والحضر من الحضور والحضري هو خلاف البدوي والحاضر هو ساكن الحضر، ويرى ابن خلدون أن البدو والحضر يتواجدن في طبيعة العمران في الخليقة، والاجتماع الإنساني ضرورة لازمة ونافعة والعمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل أقدم من الحضر وسابقة عليها لأن البادية أصل العمران وعنده أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر وهم يتميزون بمزيد من الشجاعة ولكن البوادي من القبائل التابعين للأمصار والذين يؤسسون دولاً ذات مراتب سياسية وصناعات واقتصاد وترف وتبقى الحضارة غاية العمران

ونهاية لعمره ومؤشر للفساد فالعمران كله من بداوة وحضارة له عمر محسوس كما للشخص الواحد عمراً محسوساً.

إن الترف والنعمة إذا حصلا لأهل العمران دعاهم بطبعه إلى مذاهب الحضارة والتخلف بعوائدها والحضارة هي التفنن في الترف.

وإذا فسر معنى الحضارة بذلك واستعملنا هذه الكلمة فلان حضاري أي أنه يمتلك فضيلة رفيعة المستوى أي ضد الخسة والشراسة والهمجية والإنسان المتحضر هو الإنسان المهذب المثقف الودود المرهف الحسي والشعور والمعرفة وهو الحضاري الذي يباين الريفي بقساوته عناده.

ولفريد جحا رأي مشابه في تعريف الحضارة إذ يقول: {{الحضارة تراث الأمة المادي والمعنوي}} نريد بالتراث المادي الآثار الضخمة من مدن وأبنية وتحف فنية وتماثيل أما التراث المعنوي فهو ما خلفته الأمة من علم وفلسفة وفنون وآداب وتفكير ودين على أن هذا التراث لا يمكن أن يكون حضارة إلا إذا توفرت فيه ثلاث مزايا:

أ- أن يكون أصيلاً.

ب- أن يسهم في تطور البشرية .

ج- أن يدفع في التراث الإنساني خطوات إلى الأمام.

والحضارات تراث طويل أسهمت فه جميع الأمم وشهد النور على ضفتي النيل وبلاد الرافدين وشواطئ المتوسط والصين والهند ثم انتقل إلى الغرب إلى اليونان أقرب نقطة من أوربا إلى الشرق ولقد مرت سنين على العالم الغربي كان فيها معجباً بنفسه فادعى أن حضارة الإغريق إنما نشأت من العدم ولم تتأثر بغيرها من الحضارات ثم جاء عهد الموضوعية والتقيد بالحقائق فقال سارتون: {{إن من سذاجة الأطفال الافتراض أن العلم بدأ في بلاد اليونان فالمعجزة الإغريقية سبقتها آلاف الجهود العلمية في مصر وبلاد الرافدين والعلم اليوناني كان "إحياء أكثر منه اختراع"}} مثلا الحضارة الهلنستية يسمى عصرها العصر الهلنستي يبدأ بموت الاسكندر الأكبر وينتهي باستيلاء روما على مصر، انتشرت هذه الحضارة في ربوع الشرق وكانت الإسكندرية وبرجام في طليعة مراكز الحضارة ٢٥٠٠ ق.م.

إن كل المؤشرات والمعطيات واللقى الأثرية تشير إلى أن الشرق الأوسط والمنطقة العربية بالذات وسوريا بشكل خاص أي بلاد الشام هي موطن الحضارات وموطن المقدسات، يقول ويل ديورانت في كتابه العظيم قصة الحضارة والذي قرأ قبل أن يكتبه أكثر من عشرة آلاف كتاب للتأكد مما يكتب ولليقين قال:

{{إن قصتنا تبدأ من الشرق لا لأن آسيا كانت مسرحاً لأقدم مدن معروفة فحسب بل لأن تلك المدن كونت البطانة والأساس للثقافة اليونانية والرومانية وسيدهشنا أن نعلم كم من نظام من نظمنا الاقتصادية والسياسية وما لدينا من علوم وآداب ومالنا من فلسفة ودين يرتد إلى مصر والشرق}}.

إن الآريين لم يشيدوا صرح الحضارة بل أخذوها عن بابل ومصر، إن اليونان لم ينشؤوا الحضارة إنشاء لأن ما ورثوه لنا أكثر مما ابتدعوه وهكذا كانت أسيا وضفتا النيل مهد الحضارات ثم انتقلت الحضارة إلى أوربا إلى اليونان عن طريق كريت والمستعمرات التي أنشأها الفينيقيون في معظم أرجاء البحر المتوسط كما أعقب فتوحات الاسكندر تفاعل وتمازج بين الحضارة اليونانية والهيلينينية وحضارات الشرق القديم وقد قامت الحضارة الهلنستية، بهذا الدور بلغت هذه الحضارة ذروتها في مصر في عهد البطالمة وسوريا في عهد السلوقيين ثم أخذها الرومان وأضافوا فيها ما أضافوا وبعد ذلك أخذت الدولة الرومانية وحضاراتها في الانحدار بأسباب من غزوات البرابرة والاضطهاد الديني ثم الانقسام إلى إمبراطوريتين شرقية وغربية.

أما في الثقافة الغربية الإنكليزية والألمانية فلفظ الثقافة يكافئ الحضارة أو المدينة وتحليل هذا المفهوم يظهر الغنى والتعقيد بآن واحد فالحضارة قد تدل على جملة من الصفات تبين جوانب الحياة الجمعية أي الحياة المادية والعقلية والروحية والأخلاقية والتنظيم السياسي والاجتماعي لجماعة من الناس في عصر معين.

في علوم الأنثربولوجيا يتحدثون عن حضارة البرونز وحضارة صناعية وحضارة عسكرية وهناك حضارات عنف وحضارات دهاء ومن هنا نخلص للقول أن الحضارة مفهوم نسبي وإن لكل جماعة إنسانية في كل وقت من الأوقات حضارتها ولكل شعب حضارته من خلال القيم والمفاهيم التي يأخذ بها ويزاولها ولا ننكر أن هناك مفاهيم إنسانية عامة وشاملة يشترك فيها جميع أبناء الجنس البشري كحق الحياة والعمل والحرية في الشؤون الخاصة.

تستحضرني الآن كما هو موثوق في جميع الثقافات الحضارة القديمة والوسيطة والمعاصرة، والحضارة الإنسانية حصيلة سمات تحسنت تقوم على النمو والارتقاء لتحسين مستوى الإنسانية وفكرة النمو والتقدم فكرة أساسية في كل حضارة على وجه الأرض من خلال تنظيم القوانين والأحكام وإقامة العدالة الاجتماعية فالوجه الحضاري للأمة ولأي شعب من الشعوب هو خير ومنفعة وتطوير للحياة المادية والأخلاقية والاقتصادية والسياسية.

وإذا أردنا الحكم على حضارة ما بأنها أرقى من الأخرى يجب أن نضع معايير للتقدم والتخلف وعلينا البحث في جميع الجوانب المادية والعقلية والأخلاقية والسياسية والاجتماعية واعتماد قرائن موضوعية وواضحة للتميز والمقارنة.

وأعتقد مع غيري أن من أدق وأفضل علامات الحضارة وتقدمها هو الجانب الأخلاقي الذي يتجلى في الشعور بالشخصية الإنسانية بحريتها وكرامتها وعلاقات المساواة بين أفراد المجتمع الذي ينتمي إليه وقد تكلم الفلاسفة اليونان عن الأمانة والشرف والفضيلة حيث تشكل هذه المفاهيم بنية المجتمع المتحضر والفاضل وسعادة الإنسان التي هي غاية وهدف إنساني أما الفيلسوف الألماني شبنغلر فله رأي آخر في كتابه العظيم تدهور الحضارة الغربية وهو أهم كتاب له يقول من فلسفته التشاؤمية ومن إيمانه العميق بالطبقية في المجتمع الغربي بأن النبلاء هم وحدهم الطبقة التي تمثل الأمة حق تمثيل في المجتمع وأن بقية الطبقات لا تمثلها إلا تمثيلا ناقصا فطبقة الفلاحين على حد زعمه لا تمثل الأمة في شيء وذلك لأنها حسب اجتهاده خارجة عن التاريخ وإن التاريخ لا يقوم إلا مع الحضارة وهو يرى أن طبقة الفلاحين تسبق ميلاد الحضارة زد على ذلك أن شبنغلر يرى أن من أهم مقومات الحضارة هي تلك النوازع والنزعات الفروسية التي تتمرد على حساب الأرباح والخسائر، إذ أنها تعتمد مبدأ العطاء والتضحية ولهذا وفي عصره رأى شبنغلر بأم عينه المبدأ والروح الطبقين يتهاويان ويندثران تحت لطمات الجماهير وقبضات الطبقات العاملة من فلاحين وعمالٍ ورأى الثورات والزلازل تدك صروح النبالة دكاً ورأى المادية في أبشع صورها تسود المجتمعات الأوربية وتتخذ من مبدأ الخسائر والأرباح دستوراً أخلاقياً لها ورأى أبناء المدن يتناسون بل يسخرون من تقاليد النبالة وأعرافها ويرون فيها لدلالة على رجعية المجتمع وانحطاط الدولة ورأى الامتيازات الطبقية والحواجز الاجتماعية تنهار امتيازا بعد امتياز وحاجز بعد حاجز أمام هذه الانهيارات المادية والأخلاقية لجأ إلى التشاؤم والكفر بالفعل والتغني بمزايا الوجدان واندفاعات البديهة.

كانت أخيراً صيحته المشهورة بأن الفعل يقتل والعلم يدمر وأن التحليل يهدم ولا يبني، كانت نظرته تشاؤمية، يقول في الحضارة:

{{أن الحضارة تولد في اللحظة التي تستيقظ فيها روح كبيرة وتنفصل هذه الروح عن الروح الأولية للطفولة الإنسانية الأبدية كما تنفصل الصورة عما ليس له صورة وكما ينبثق المحدود عن اللا محدود}}.

ويرى أن الحضارة تولد وتنمو في بيئة يمكن تحديدها تحديداً دقيقاً وأن الحضارة ككل كائن لها طفولتها وشبابها ونضوجها وشيخوختها وأنها تموت تتحقق روحها جميع إمكاناتها الباطنية على هيئة شعوب ولغات ومذاهب دينية وفنون وعلوم ودول، عندما تحقق كل ذلك: تتخشب وتتحول إلى مدينة وأخيراً تتجاوز المدينة إلى الانحلال والفناء.

ويرى أيضاً أن لكل حضارة صيرورة واتجاهاً وزمانا ومصيراً وتاريخاً وأن الحضارة أسيرة مصيرها.

الحضارة تولد وهي تحمل معها صورة وجودها، يضرب مثلا على الحضارة العربية التي

تمكنت أن تفرض طابعها على المباني الرومانية ابتداءً من هادريان أول من بنى مسجد إسلامي في التاريخ.

ويرى شبنغلر أنه لا يمكن فهم أية ظاهرة أساسية اقتصادية أو اجتماعية أو اقتصادية أم علمية أو أدبية إلا بواسطة فهم كل ما للحضارات من ظاهرات.

ويرى شبنغلر أن للحضارات دستوراً أخلاقياً يتمثل في العند وقوة النفس والوجدان الممثل في الشعور، لا بالحس وأن الفعلانية في شتى مذاهبها هي فلسفة مدنية لا حضارية لذلك عندما تدخل الحضارة الطور العقلاني من تطورها تبلغ خريف عمرها وتشيخ وتهوي إلى درك المدنية ثم تتابع انحدارها إلى الانحلال.

الحضارة العربية: شبنغلر أعجب بالحضارة العربية إعجاباً دون تحفظ ويرى شبنغلر أن جميع الحضارات التي قامت في الشرق الأوسط ما عدا الحضارة الفرعونية هي حضارات عربية ويبلغ إعجابه بالحضارة العربية حداً يضعها جنباً إلى جنب مع الحضارة الفاوستية أي كالحضارة الفاوستية تؤمن بثلاثة أبعاد أي طول وعرض وعمق لكن الفرق بين العمق الفاوستي والعمق العربي أن العمق الفاوستي يتسامى ليحلق في الفراغ بينما العمق العربي يغوص عميقاً في باطن الأرض، يتضح من ذلك إعجابه بالحضارة العربية من خلال أن العرب لم يستعمروا البلدان التي فتحوها.

المفهوم الأنثربولوجي للحضارات وللحضارة لا ينفي الدور القومي في الحضارة فبالإضافة إلى صفة الكلية والوحدة اللتين تتصف بهم الحضارة فإنها تتصف كذلك بالشمولية أي العالمية وبالخصوصية أي التخصص القومي.

إن الحضارة أشبه ما تكون بعملية تثقيف متواصلة تتولى أمرها قومية من القوميات وفي كل مرحلة تتلخص الحضارة العالمية في قومية خاصة، إن خصوصية الحضارة لا تتعارض مع شموليتها وعلى هذا النحو يمكننا الكلام عن الحضارة الإغريقية والحضارة العربية والحضارة الغربية الحديثة دون أن ننفي صفة الشمولية والخصوصية.

فرويد: ما نسميه حضارة هو السبب عن بؤسنا ونحن لا نشعر براحة في حضارتنا الحالية ويتساءل هل يستطيع تقدم الحضارة السيطرة على الاضطرابات التي تثيرها في الحياة المشتركة اندفاعات الناس نحو العدوان والهدم الذاتي - العذاب ناجم في نظر فرويد عن المجتمع عن حضارته .

غارودي: خلص إلى الدعوة لحوار الحضارات والتحرر من عقدة ماراثون التي فصلت الغرب عن الشرق وقد تطلع إلى نماذج جديدة من علاقة الإنسان بالإنسان.

مركيوز :التنظيم العقلي يترتب عليه أن يكف عن قمع الغرائز بعد أن يتم القضاء على العوز والفاقة وتلبى الحاجات الأساسية الجنسية والاجتماعية تلبية شاملة ويحقق الناس هذه التلبية دون عناء - تقلص ساعات العمل أي لا تبقى ساعات العمل عائقاً في وجه النمو الإنساني ويتحقق الشرط الأساسي للحرية.

تجربة أساسية تغير الوجود الإنساني تجربة حضارة لا تقوم لا تقوم على القمع وتنطوي على علاقة جديدة بين الغرائز والعقل تنقلب فيها الأخلاق المدنية رأساً على عقب حين تقيم الانسجام والاتساق بين الحرية الغريزية والنظام فالغرائز تنزع بعد تحررها من طغيان العقل القمعي إلى علاقات وجودية حرة عندما تفوز علاقات العمل وهي أساس الحضارة كما تفوز الحضارة ذاتها بدعم من الطاقة الغريزية التي لم تسلخ عنها صفتها الجنسية.

يقول وايتهيد بتعريف بسيط للحضارة بقوله:

الإنسان أو المجتمع المتحضر هو من سيطرت عليه المزايا الآتية: {{الصدق - الجمال - المغامرة - الفن - السلام}} على أن تتمثل هذه المزايا الخمس في كل جوانب الخبرة.

وليست الحضارة في رأي وايتهيد ترفاً خفيا مقصوراً على فئة (مختارة) قليلة من الناس بل هي أولى بأن تكون تميزاً تاماً أو ظرفاً لحياة مطمئنة المغامرة تتضمن الحذر وقد تنتهي بكارثة والأمهر فيه الموت والثبات والمغامرة ينبغي أن تقوم على أسس متينة من حكمة الماضي ومهاراته غير أن الحضارة ينبغي ألا يعرقلها الماضي.

المغامرة والسلام والصدق ليست وحدها الخصائص الجوهرية للحضارة فالجمال والفن خاصتان جوهريتان وفي أكثر الأحيان لا يكترث الجمال والفن بالصدق، إلى جانب هذه المزايا هناك مزايا أخرى للحضارة أو مستلزمات لها إدراك أهمية الأفراد وحرية الرأي والعمل والتسامح واتخاذ سبيل الإقناع بدل من العفو والحكمة.

تعريف وايتهيد للحضارة يتسم بالطابع المثالي: إلى حد لا تستطيع معه أية جماعة في مجتمع وعلى وجه التأكيد قليل جداً من الأفراد أن يصلوا تماماً هذا المستوى.

عوامل أساسية:

إن بلوغ المستوى الحضاري والمحافظة عليه أو تحطيمه يعتمد على عدد من العوامل الأساسية إلى جانب العوامل السابقة فالأفكار وعظماء الرجال وألوان النشاط الاقتصادي والاختراعات الصناعية وحقائق الجغرافية (والله) كل أولئك لها أثرها في سلوك الناس وتناول هذه العوامل وما يتصل بها يشكل فلسفة في التاريخ عند وايتهيد.

لكي يبقى الشعور بضرورة تطوير الفكر الثوري على صعيده النظري ليواجه مشكلات الحضارة المعاصرة.

ما هي إمكانات هذا الفيلسوف بالنسبة لهموم الفكر العربي وقضاياه المعاصرة ولدول العالم الثالث بالذات.

ما يتعلق أولاً بتحليل حضارة القمح وأليات القسر فيها ذلك أن هذه الحضارة لا تخص أممها فحسب ولكنها تمتد إلى كل بقعة في الأرض وتحاول امتصاص مبادهات الأمم الأخرى وتحويلها إلى مجالات حيوية لممارسة قوانينها القمعية وتعمل على إقناع شعوب العالم الثالث بإطلاق مفاهيمها وإيديولوجيتها وممارستها المختلفة.

إن حضارات شعوب العالم الثالث (المتخلفة) توارثت من قديم نموذجها القمعي الخاص وهو النموذج الذي يقف على أعتاب الانتقال من المرحلة الأبوية اللا هوائية إلى المرحلة شبه الصناعية وعندما انتقلت طلائع هذه الشعوب إلى اعتناق الفلسفات الثورية وعلى رأسها الماركسية السياسية فقد أهملت دائما البحث في بنيتها التاريخية والنفسية والمادية الخاصة وبدأت تكافح بالأفكار الثورية المثالية إنها نتعاضى عن أشياء واقعها الخاص.

إن مشكلة المجتمع العربي وكثيراً من شعوب الشرق معه القمع جزءً لا يتجزأ من بطانة شعوره الداخلي لذلك يدعونا (هربرت ماركوز) إلى الاستفادة من ملفات حضارة القمع لأننا نشكل طرفاً جوهرياً في الحضارات ولا نزال ندفع أفدح الأثمان لقاء أمراض وسيطرات الطرف الغوي.

يقول زكي نجيب محمود:

١- هل الحضارة العربية متخلفة عما وصلت له الحضارة في البلدان الأخرى؟! الجواب: نعم.

٢- أين وصلت الحضارة في سيرها إلى درجتها الأكثر تقدماً؟! الجواب: في أوربا الغربية وأمريكا.

٣-كيف تتجاوز الحضارة العربية تخلفها؟!

الجواب: بإتباعها نموذج أوربا الغربية وأمريكا.

هذا التقرير الجوابي يسمى المنطق الوضعي إنه عاجز عن تحديد مفهوم الحضارة برأي الماركسيين.

انتقى زكي نجيب محمود نماذج أربعة هي أثينا في القرن الخامس قبل الميلاد وبغداد في عصر المأمون في القرن التاسع عشر وفلورنسة في القرن الخامس عشر وباريس في عصر التنوير في القرن الثامن عشر فرأى أن الاحتكام إلى الفعل في قبول ما يقبله الناس وفي رفض ما يرفضونه هو القاسم المشترك بينهما فهو إذن الصفة المنشودة التي بها تكون الحضارة حضارة، هذه العقلانية هي الصفة الملازمة لكل حضارة مهما اختلف لونها.

عجز المنطق الوضعي عن تحديد مفهوم الحضارة برأي الماركسيين ليس الماضي في بقائه في الحاضر سبب التخلف بل الحاضر هو سبب بقاء الماضي فيه.

الحضارة إذن هي ما يصنعه الإنسان وما يضيفه البشر إلى الطبيعة في مجالات التحول والابتكار العلمي والتقني والسياسي والاقتصادي والاجتماعي والإنسان هو غاية المدينة وهو نتاج التطور الطبيعي والعوامل الاقتصادية والأخلاقية التي تسيطر على تاريخه وتحدد مصيره وخير ما

يفعل الإنسان المعاصر إذا شاء الخلاص من صدمة المستقبل وإنقاذ القيم الإنسانية هو أن يسيطر على غلو تسارع التقانة ويخضع الاختراعات الإلكترونية والتقنيات الحديثة إلى وعي يختار به أسلوب حضارة الغد ومستقبله الأفضل.

إن ظاهرة الحضارة أوسع وأشمل من ظاهرة التمدن والعمران والدليل وجود الحضارات الكثيرة ففي عصر أرنولد تونيسبي عدد عشرين حضارة إنسانية تقوم على ثقافة المجتمع واختراعاته وتقنياته.

ونتساءل الآن هل تكمن الفضيلة وتشع في فورة الحضارة وشبابها..؟! هل الحضارات جميعا في الشرق والغرب تضمنت الفضائل الأخلاقية والاجتماعية..؟!

هذا الكلام يعود بنا إلى جميع الفلسفات في الشرق والغرب ويعود بنا إلى القيم الأخلاقية التي تحدثوا بها، فمثلا {{ماكس فيبر يعتبر القيم العليا مستقلة عن الذات والنظريات الوجودية أو الأكسيولوجيات}} الموصوفة بالذاتية تعتبر أن القيم العليا لا تشكل سوى انعكاس مثالي لشهوات الذات.

أما سقراط فالفضيلة لديه ليست إلا صورة للمقاييس العلوية المتمركزة حول الخير والعدالة والحرية والمساواة.

أما أفلاطون فالرجل الفاضل لده الروح مركبة من ثلاثة عناصر: الشهوات - الهوى - العقل والفضيلة كالتوازن تحقيق للتوازن بينهما بشكل عقلاني سليم.

أما أرسطو فالفضيلة في كتاب الأخلاق لديه هي عادة واستعداد راسخ مكتسب لتجنب أي تطرف والحفاظ في كل شيء على الوسط الصحيح فلا ينبغي إلغاء الأهواء لأنها جزء من طبيعتنا كما أنها محركنا الداخلي كما لا ينبغي إطلاق العنان لها لأنها ستطغي على العقل - ففضائل الحياة العملية السماحة وهي المرحلة المتوسطة بين البخل والإسراف والعدالة تقوم على التوازن الاجتماعي أي الفضيلة وسط بين شيء وضده.

أما الرواقيون: لا يوجد لديهم نصف فضيلة فالفضيلة إما أن تكون كلا واحدا كاملا وشاملا وإما ألا تكون على الإطلاق فمن هو غير حكيم فهو مجنون أما الفضائل الجزئية فتشكل مجموعة واحدة ومن لا يمتلكها بأجمعها فهو لا يمتلك أي واحدة منها.

أما ديكارت فيلسوف العقل: فهجر مصلحة شخصية والخضوع الفعال بجبور للعلوية الكاملة التي يتوقف عليها العالم بأجمعه.

والمسلمة الديكارتية: اتجاه نحو وعي يزداد وضوحا باستمرار للحل الذي يشغله الفرد في الكل (الوطن - الإنسانية - الكون - الإله...).

سبينيوزا يتمنى للبشر العيش بشكل أخلاقي وعقلاني لتحقيق الفضيلة أما الحكيم فهو من يتصرف بصورة يحب الله فيها عبر الناس فهو متواضع إزائهم ومسامح كما أنه لا يحمل ضغينة أو احتقارا لأحد ويخضع دون نقاش من الناحية الاجتماعية للقوانين السياسية فهي صدى الضرورة الإلهية طالما أنها لا تقود الإنسان إلى الانقسام والحق.

أما فيخته: الكثرة أو التعدد ليست إلا الوسيلة التي تتيح للـ {أنا} التقدم ويجب أن تهدف الفضيلة إلى العمل على تحقيق الكمال لدى الآخرين بقدر ما يفعله المرء بالنسبة لنفسه كما يجب أن تهدف إلى تنمية انسجام المجموعة وتنمية الحرية الفردية لكل عضو من أعضائها.

شبنهور: الرحمة التي تهدف إلى نكران الذات.

أما في ديانات الشرق فالفضائل متشابهة وقريبة من فضائل الإسلام الحنيف والتي تعنى بشكل خاص بالفضائل العائلية والاجتماعية من أسسها احترام إنسانية الإنسان والمرأة ومعاملتها بالعدل على الرغم من عدم المساواة بينها وبين الرجل المؤازرة الحفاظ على العهد التواضع كبح الشهوات.

أما الأبيقورية: فهي التي تحمي جميع الفضائل التعليمية كالشجاعة - الصداقة - العفة... الخ.

تحدثنا عن الحضارة وعرفناها من خلال المفكرين والفلاسفة وعرجنا على آفاقها اللا محدود من العلوم والفنون والتكنولوجيا وعن عناصرها المتفاعلة وهدفها الأسمى الذي هو إنسانية الإنسان وبلوغ هذا الهدف لا يمكن الوصول إليه آليا بل نتيجة جهد وعمل.

وإن أحسن ما في بطون تاريخ الحضارة هو المفكرين والعلماء والفلاسفة الذين شرعوا ووضعوا القوانين بمختلف مناحي الحياة والتي لا زالت تزاول حتى عصرنا الحالي...

إن قوانين حمورابي البابلية نعيش بمحتواها وما زلنا نكتب ونقرأ بأول أبجدية عرفها العالم في أوغاريت الساحل السوري وإن لكل شخص الحق في البحث عن الحقيقة التي يؤمن بها لأنه لا يوجد حقيقة واحدة بل حقائق على قدر ما هنالك من ضمائر ووجدانات والخير والشر توأما العالم القديم والحديث ولا يمكن أن يعيش الإنسان بنعيم دائم أو شرور دائمة والعمل بالفضيلة مشروع أخلاقي في تاريخ الحضارات تبناه المفكرون والعلماء والفضيلة موجودة ومتواجدة في كل الضمائر الحرة وفي كل العقول النيرة.

لقد وجدت الفضيلة في كل الفلسفات والفلسفات هي بنات وأولاد المفكرين والفلاسفة والعلماء في الحضارة اليونانية والرومانية والعربية والحضارات في الشرق الأدنى، أليس سقراط وأرسطو وأفلاطون فضلاء؟! أليس ابن حيان وابن الهيثم وابن خلدون وشعراء الحضارة العربية في العصر العباسي وفلاسفة العصر العباسي الفارابي وابن رشد والكندي والسهروردي وابن طفيل فضلاء، أليست بصمات الحضارة العربية وعمرانها ونقوشها مطبوعة بشرف وامتياز على حضارة الغرب في إسبانيا وعلى مدنها وعمرانها وتاريخها وثقافتها...

الفضيلة تعيش جنباً إلى جنب مع كل بناء ومع كل عقل نير ومع كل تفكير عقلاني وجميع المفكرين العرب والفلاسفة كانت الفضيلة منهجا وسلوكا لهما ولكن الفضيلة لا يمكن أن تعيش بمفردها على رأي المدينة الفاضلة عند أفلاطون لأن الحضارة تشبه النفس البشرية فيها الأهواء والشهوات وفيها الروح أو النفس وفيها العقل والصراع هو الحسم بذلك وهو سيد الموقف والاعتدال في كل أمور الحياة سيد الموقف وعلى رأي أرسطو: لقد انتهت كثيراً من الحضارات وبادت بفورانها وعنفوانها وقسوتها مع أنها قدمت للبشرية الكثير من العلوم المعرفية والأمثلة كثيرة لدنا من حضارة الرومان إلى الحضارة العربية التي أنهكتها الفوضى والتشرذم والانقسام لذلك حري بالمجتمعات العربية أن تفكر بمستقبل الأرض ومستقبل الكرة الأرضية والمخاطر التي تحيق بها.

إن الإنسانية تدمر ذاتها إذا استمرت مجتمعاتنا تعيش وتنمو وفق ما تفعل ويترتب علينا أن نغير طراز تفكيرنا وحياتنا ولسنا وحدنا على الأرض بل ملايين ومليارات الناس والآخرين ولكي يتواجد التقارب يجب أن نتفق على أمور كثيرة:

١- تشخيص عالم قيم ومبادئ لعمل أولويات وإستراتيجية وهذا ما ندعوه توطئة متكافل ومسؤول ونبني المستقبل الحضاري الجديد من خلال:

١- مبدأ الصيانة - صيانة الأرض بما فيها من هواء وماء وأحياء.

٢- مبدأ الإنسانية: أن تكون للإنسانية حياة كريمة مع الاحترام والإنصاف وتكافل البشر والمجتمعات.

٣- مبدأ المسؤولية: على الأفراد والدول والمنظمات الدولية تحمل مسؤوليتها في بناء انساق المجتمعات والبشر بينهم وبين بيئتهم إن عليها أن تنهض بذلك بمقدار ثروتها وقدرتها وإن الشعوب مشتركة المسؤولية عن مصير البشرية.

٤- مبدأ الاعتدال: علينا أن نتعلم كبح جشعنا في الاستهلاك.

٥- مبدأ الحيطة: أن لا نضع منتجات أو تقنيات جديدة إلا بعد السيطرة عليها.

٦- التنوع : تنوع الثقافات وتنوع الأحياء هو خير برنامج يجب على البشر صونه.

٧- مبدأ المواطنة: علينا أن نتعلم النظر إلى أنفسنا وإلى جميع الكائنات البشرية على أننا أعضاء بحصة كاملة في الجماعات الإنسانية الواسعة.

وأخيراً يجب أن نقر ونعترف أن الديمومة لله وحده ولا شيء يبقى من الحضارة إلا القوانين الأخلاقية والإنسانية والمعارف والعلوم التي ساهمت في بناء الإنسان وتقدمه، وكل حضارة كانت قد أسست على العنف والدمار والاجتياح ليست حضارة إنها همجية القوة والمادة.

الحضارة هي السلام والأمان والاستقرار في شروط صحية وبيئة سليمة... هي انفتاح على العالم ومحطات بناء وتطور الحضارة هي التقدم الإنساني والبناء المستمر إلى الأمام، حدودها الأفق وغايتها الإنسان بحقوقه الإلهية والقانونية.

الشاعرة الموهوبة عزيزة هارون ١٩٢٣ - ١٩٨٦

بقلم:
يوسف عبد الأحد

كانَ لقائي الأول بالشاعرة عزيزة هارون عندما قدمَت من اللاذقية إلى دمشق وحلّت ضيفة في منزلَ صديقتها الأديبة الكبيرة ألفة الإدلبي (١٩١٢ - ٢٠٠٧) كان ذلك يوم ١٩٦٢/٥/٣٠.

طلبت منها آنذاك أن تحدثنا عن سيرة حياتها ونشأتها فأمسكت بالقلم وخطت هذه العبارات التي تصف فيها رحلتها الشاقة والمريرة منذ فجر تفتحها للحياة قائلة: "ولدت في حي القلعة بمدينة اللاذقية عام ١٩٢٣، درست دراسة خاصة في منزل والدي، تألمت وأغنتني الآلام فأحسست بآلام الآخرين وأحببت آلامهم تفتحت للألم قبل أن تفتح للحياة وكافحت في سبيل شعري الذي اسكب فيه أحلامي وآمالي وحبي والذي تبدو فيه حياتي كلها منذ فجر صباي الذي تألم في غربة مريرة".

تقول:

غربتي كانت مريرة ... في بلادي
وجهادي عندما كنت ... صغيره

يا جهادي

وبياضي غاب ... في دنيا سوادي

بخرافات كثيرة

عصبوا عيني لم ... ألمح من الدنيا

سوى دار صغيره

فتوغلت بإحساسي ... بقلبي بالبصيرة

ولمحت الكون جنات نضيرة

لم تتمكن من مواصلة تعليمها لظروف قاهره فانصرفت إلى المطالعة وتتلمذت على يد الشيخ سعيد مطرجي في اللغة العربية والقرآن الكريم.

بدأت رحلتها مع الشعر في سن مبكرة ولما تبلغ الخامسة عشرة من عمرها ونشرت أولى قصائدها في العدد الأول من مجلة (القيثارة)

الصادرة في اللاذقية في حزيران عام ١٩٤٦ وكانت قصيدتها بعنوان (خمرة الفن) قائلة:

أحناناً تهمي سليما عليا
حفظ الله نور ذاك المحيا
ابذلي العطف والحنان لغيري
أنا نبع الحنان يا مقلتيا
إن حزني لا كالهموم وجوماً
هو يبدو مقدساً عبقريا
إن بكت مقلتي وغصّ فؤادي
ابعث اللحن ساحراً علويا

عملت عزيزة في إذاعة دمشق تذيع بعض القصائد لشعراء قدماء ومعاصرين وتلقي من شعرها بصوتها الرقيق الدافئ، وكانت قيّمة على مكتبة مديرية الإذاعة.

شاركت في مؤتمرات ومهرجانات أدبية عديدة في سورية وخارجها ونشرت قصائدها في عدة صحف ومجلات عربية منها مجلة أصداء الذي كان يصدرها الأديب شكيب الجابري (١٩١٢ - ١٩٩٦) وفي مجلة الصباح والتمدن الإسلامي والأديب والآداب وغيرها.

تزوجت في سن مبكرة إلا أنها فشلت في زواجها ثلاث مرات وكانت عضواً في لجنة الشعر في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب وعضواً في اتحاد الكتاب العرب بدمشق.

قامت الندوة الثقافية النسائية بدمشق بطبع ديوانها عام ١٩٩٢ وأعدته الشاعرة عفيفة الحصني (١٩١٨ - ٢٠٠٣).

وجاء في إهداء الديوان للشاعرة عفيفة قائلة: "لقد عكفت على قراءة هذه القصائد شهرين أطلع على ما كتبته بيدك وما نشرته في الصحف والمجلات وما احتفظت به عندي وما احتفظ به أصدقاؤك من مخطوطات وأخص بالذكر السيدة ألفة الإدلبي والأديبين يوسف عبد الأحد وعبد اللطيف أرناؤوط وشكلت القصائد كلها ليسهل تناولها للناس جميعاً وصنفتها في ثلاثة أبواب الأول الأرض والوطن والثاني الإنسان والثالث الغزل واستعذبت ما بذلته من جهد لأن في شعرك وفنك خدمة للمجتمع العربي بخاصة وللمجتمع الإنساني بأسره".

وجاء في تقديم الأديب عبد اللطيف أرناؤوط قال: " عزيزه هارون واحدة من أبرز أصواتنا النسائية التي دافعت عن إنسانية المرأة (وهي ضحية من ضحايا العادات والتقاليد في مجتمعنا الشرقي) وهي رائدة من رائدات الدعوة إلى تحرير المرأة تلك الدعوة التي رسمت أولى خطاها ملك حفني ناصف (١٨٨٦ - ١٩١٨) وهدى شعراوي (١٨٧٩ - ١٩٤٧) ومي زيادة (١٨٨٦ - ١٩٤١)"

وفاتها:

في الفترة الأخيرة من حياتها عانت من مرض عضال ودخلت مشفى الشامي بدمشق للعلاج غير أن الطب عجز من شفائها وفارقت الحياة في تمام الساعة الخامسة من مساء يوم الأربعاء في ١٢ شباط ١٩٨٦.

وقد رثتها صديقتها الأديبة ألفة الإدلبي في حفل التأبين جاء في كلمتها: "ما أمرّ الذكرى وما أعذبها.. حقاً كان رحيلك عن هذه الدنيا مراً بل شديد المرارة بالنسبة لأهلك وأصدقائك وجميع قرائك.. أما ذكراك فستظل حلوة عذبة مهما بعد بها العهد.

كلما ذكرت عزيزة سيرن في آذاننا جرسها الدافئ الناعم يردد جميل الشعر وستظل صورتها ماثلة قواماً فارعاً ونظره زرقاء شفافة الزرقة.

نعم هكذا ستظلين أيتها الشاعرة الملهمة والملهِمة في أذهاننا أميرة على منبر".




درسٌ خصوصيٌّ..

شعر الدكتورة: سعاد الصباح

لا تنتقد خجلي الشديدَ.. فإنني

درويشةٌ جداً.. وأنتَ خبيرُ

يا سيّدَ الكلمات.. هبني فرصةً

حتى يذاكر درسَهُ العصفورُ..

خُذني بكُلِّ بساطتي.. وطفولتي

أنا لم أزَلْ أحبو.. وأنتَ خبيرُ.

*　*　*

أنا لا أفرّقُ بين أنفي أو فمي

في حين أنتَ، على النساء قديرُ..

من أينَ تأتي بالفصاحة كلّها..

وأنا.. يموت على فمي التعبيرُ

أنا في الهوى، لا حول لي أو قوّة

إنَّ المحبّ بطبعه مكسورُ

إني نسيتُ جميع ما علّمتني

في الحبّ، فاغفر لي، وأنتَ غفورُ

*　*　*







يا واضع التاريخ.. تحت سريرهِ

يا أيّها المتشاوفُ، المغرورُ

* * *

يا هادئَ الأعصابِ.. إنّك ثابتٌ

وأنا .. على ذاتي أدورُ .. أدورُ..

الأرضُ تحتي، دائماً محروقةٌ

والأرضُ تحتك مُخملٌ وحريرُ..

فرقٌ كبيرٌ بيننا، يا سيّدي

فأنا محافظةٌ.. وأنتَ جسورُ

* * *

وأنا مقيّدةٌ.. وأنتَ تطيرُ..

وأنا محجّبةٌ.. وأنتَ بصيرُ.

وأنا.. أنا.. مجهولةٌ جدّاً..

وأنتَ شهيرُ..

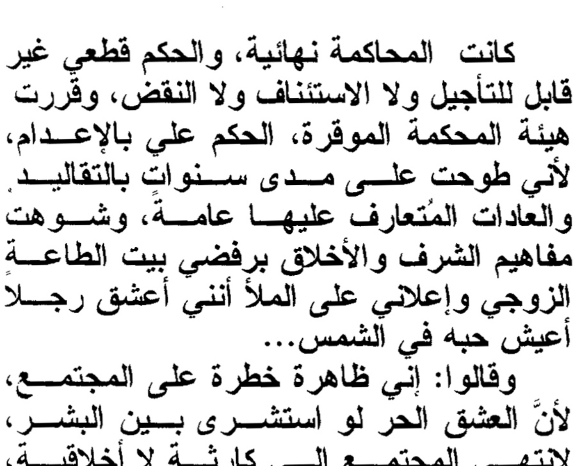
* * *

فرقٌ كبيرٌ بيننا.. يا سيّدي

فأنا الحضارةُ

والطّغاةُ ذُكورُ..



قصة

إعدام امرأة

بقلم الدكتورة:

هيفاء بيطار

كانت المحاكمة نهائية، والحكم قطعي غير قابل للتأجيل ولا الاستئناف ولا النقض، وقررت هيئة المحكمة الموقرة، الحكم علي بالإعدام، لأني طوحت على مدى سنوات بالتقاليد والعادات المُتعارف عليها عامةً، وشوهت مفاهيم الشرف والأخلاق برفضي بيت الطاعة الزوجي وإعلاني على الملأ أنني أعشق رجلا أعيش حبه في الشمس...

وقالوا: إني ظاهرة خطرة على المجتمع، لأنّ العشق الحر لو استشرى بين البشر، لانتهى المجتمع إلى كارثة لا أخلاقية، ولانهدمت بيوت كثيرة، ولهجرت نساء كثيرات أزواجهن، ولهجر رجال كثيرون زوجاتهم، وهكذا تنهدم بنية الأسرة التي هي حجر الأساس لبناء مجتمع سليم...

لا أذكر ماذا قالوا بعد... أغمضتُ عيني تخيلت بيتاً ريفياً بسيطاً وأشجاراً عالية وأطفالا يلعبون ويتصايحون، وتبلورت هذه الصورة أكثر وأكثر، واشتد صياح الأطفال وعلت ضحكاتهم، وتبينت من خلالهم ابنتي إيمان، فخفق قلبي بشدة، كانت تضحك من كل قلبها تتكلم وتشير بيديها، كانت عيونها تلتمع فرحا، وخدودها موردة، وهي تقفز وتلعب مع رفاقها، صرخت بكل قواي، إيمان، إيمان، لكنها لم تسمع، كنت أراها، ولكنها لا تراني، ولا تسمعني، وددت لو أركض أحتضنها بقوة وأقبل يديها وقدميها وشعرها.... ولكني اكتشفت أني غير قادرة على الحركة وأني مشلولة... وفجأة انطفأت الرؤية وحل الظلام، وحاولت جاهدة استعادة الصورة فعجزت وفتحت عيني بأسى ففوجئت بتزايد الجماهير، كيف تجمّع كل هؤلاء، من أين أتوا؟.. رجالا ونساءً.. حتى الأطفال، أحضروا أطفالهم ليشهدوا إعدام امرأة... ولكن لماذا يُحضرون الأطفال، وكيف تسمح هيئة المحكمة الموقرة بإحضار الأطفال؟....

ما كنتُ أشعر بشيء، ولكني كنتُ فعلا مندهشة من هذا الحشد الكبير، ونقلت نظري في الوجوه، كنت أعرف أكثرها، وتبينت أصدقائي وأقربائي وجيراني وغيرهم كثيرون

بالرغم عني ابتسمتُ لأني وجدتُ تشابهاً كبيراً بينهم... نفس النظرات، هل النظرة تعطي هذا التشابه الكبير بين البشر كانوا ينظرون إلي بثبات نظرة حيادية باردة ميتة... كأني لا شيء بالنسبة لهم كأني لم أعشِ وسطهم أكثر من ثلاثين عاماً... كيف يتنكرون لي بهذه البساطة، ووجدت الأنظار كلها تتحول لأحد رجال المحكمة الذي وقف وأعلن بإصرار أنه لن يصلي على جثتي بعد وفاتي لأني كافرة، ولم أطبق تعاليم الدين... وجرى همس خفيف بين الناس، ثم سكت الهمس وحلّ صمت كله ترقب...

سألني أحد رجال المحكمة: ماهي رغبتك الأخيرة..

قلت له: أريد أن أموت غرقاً...

دهش وقال: ولكني أسألك عن رغبتك الأخيرة، لا عن الطريقة التي ستموتين فيها، فهي من اختصاصنا...

ـ ليس عندي أية رغبة، سوى أن أموت غرقاً...

يبدو أن هذه الرغبة لم تكن متوقعة أبداً، فجرى تشاور طويل بين رجال المحكمة الثلاث، وافقوا على رغبتي... أخيراً...

ـ ولكن البحر بعيد من هنا، حسناً سنأخذك بالسيارة... كانت ثلاث سيارات سوداء فخمة تنتظر عند باب المحكمة وأشاروا إلي أن أركب إحدى السيارات، صعدت إلى المقعد الخلفي، وانطلق السائق باتجاه البحر... لم أكن أشعر بأي شيء، كانت أحاسيسي مصادرة، كأنها تجلدت أو هربت كنت أنظر إلى البيوت والناس والأشجار، وأكوام القمامة.

كان البحر ينتظرني بشوق، والموج يهمس لي بموسيقى رائعة، لم أسمع أجمل منها في حياتي... الزرقة الأبدية ستحتويني وسأرتاح، ولدهشتي وجدت حشد الناس ينتظرني على الشاطئ، كيف وصلوا بهذه السرعة؟!... هل ركبوا سيارات أم أنها جمهرة أخرى، ولكنهم متشابهون لدرجة....

وقف الرجال الثلاثة الممثلون لهيئة المحكمة، وأومؤا لرجلين ضخمين كي يدفعاني إلى الماء.. لكني لم أنتظر تلك اللحظة كان البحر يناديني بشوق لا يوصف، دبت الحياة بقدمي المشلولتين ووجدتني أركض وأركض وأرتمي في الزرقة اللامتناهية...

كانت برودة الماء منعشةً، وأحسست أن أحزاني تذوب كلها... وتحررت من ثقل جسدي وملابسي وتنفست بعمق ووجدت دموعي تنسكب بغزارة وتختلط بماء البحر فيشكل اتحادهما دواءً سحرياً يداوي جروحي الكثيرة...

لم أكن أتصور أن قاع البحر جميلٍ بهذا الشكل تعجبت كيف كنت أخشاه سابقا، كان الموج ينقلني بخفة ويبحرني إلى عوالم رائعة، ألوانها ساطعة، لم أشاهد مثلها من قبل كنت خفيفة وحرة وسعيدة، وكانت تصدر آهات فرح من حنجرتي، ووجدت نفسي أغني وأنا أدور مع الموج.... لم أكن أقدر الزمن، كم استمر دوراني مع الموج، ثواني ساعات، أياماً، سنين... لا أدري، تعطل الزمن كنت أعيش بسعادة لا متناهية...

يبدو أنّه لا يوجد توقيت زمني في عالم البحار، كنت مستسلمة للموج الذي ينقلني من مدينة إلى مدينة دون حدود، ودون جواز سفر، إلى أن تباطأ الدوران وتوقف، ووجدت نفسي في جزيرة خضراء رائعة، وهتفت بكل حواسي أنها الجنة، كان خيالي يعجز عن تخيل جمال بهذه الروعة أشجارها مختلفة، أزهارها بألوان لم أشاهدهما من قبل، شمسها ساطعة دوما "تشيع الدفء والحياة وبين الأشجار الباسقة لمحت بيتاً أو بناءً جميلا أشبه بالبيت، ولكن جدرانه شفافة واقتربت، كان الباب مفتوحاً... تعجبت هل هذه الجزيرة مسكونةً دخلت من الباب وجدته، صرخت صرخةً ردد صداها الموج كله... كان حبيبي يجلس ينتظرني وعيناه تشعانِ حباً ووجداً.. ارتميت في أحضانه وبكيت دهراً.... وقلت له: كيفَ أتيت إلى هنا، هل حكموا عليك بالإعدام أيضاً...

قال: أبداً، ولكن حبنا لا يعيش إلا في الجنةِ، وهذه هي الجنة التي انتظرتك فيها طويلا، هنا سنعيش بسلام، لن نضطر للكذب،

لن نضطر لتقديم أوراق رسمية مختومة وعليها طوابع ليحللوا علاقتنا أو يحرموها... في هذه الجزيرة، لا شيء ينمو دون حب الشمس هنا لا تغيب أبداً... ولكن أشعتها دافئة وليست محرقة الأشجار تظل خضراء ولا تتساقط أوراقها، الأزهار تظل يانعة، لا تذبل ولا تتبدل...

وبدأت أدور في هذه الجزيرة العجيبة، وتمددت على سجادة خضراء من العشب الطري وسط أزهار تلمع بألوان عجيبة، ومددت يدي وقطفت زهرة، ولدهشتي سال دم أحمر حار من ساقها ذهلت وأسرعت لصديقي أخبره ما حدث، فقال لي وهو متألم، ولماذا تقطعين الأزهار....

تأمليها فقط، هذه الأزهار نمت من دماء الشهداء، من دماء المظلومين والضحايا الأبرياء.... كانت الزهرة في يدي لا تزال ترشح دماءً خفيفاً، تألمت كثيرا، لماذا قطفتها، وتحول لونها إلى أصفر شاحب فرميتها جانبا..

كيف يمر الزمن في هذه الجزيرة؟ لا أدري فالشمس لم تكن تغيب أبداً... وكنت أستطيع أن أنام بهدوء في دفئها الرائع، وكنت أقوم بنزهات طويلة وأنا أمسك يد حبيبي بأمان، دون أن أرتجف خوفاً، ونتحدث أحاديث لا نهائية، لا يبترها تجسس ولا فضول... حتى حبنا تغير شكله، صار امتداداً لروعة الطبيعة، لا يعرف الشك ولا الفتور، ولا الغضب، صار له مسحة من الخلود والمطلق، صار نوعاً من التعبد، كأنه انصهر مع عبادة الله...

كيف لا يكتفي الإنسان بالجنة، فتشده قوى خفية إلى أن يخرج منها ولو لدقائق، قوى نحو مجهول، كله عتمة وخطر... وبدأت تنتابني هواجس وأحلام؟.. إني يمكن أن أتسلل خارج الجزيرة لدقائق لأرى إيمان... لتبحث روحي عنها، فقط لأراها... كنت أعرف أن حبيبي سيمنعني من الخروج لأننا أموات بالنسبة لأهل الأرض... ولكن الهواجس زادت وأخذ شوقي لإيمان يزداد ويتعمق حتى احتل كياني كله ولم أعد قادرة على التفكير بشيء... وفي لحظة لمحت دوار البحر يمر بالقرب من الجزيرة، فرميت نفسي فيه وحبيبي يصرخ أيتها المجنونة لماذا فعلت ذلك؟! وأصعدني الدوار إلى السطح، فرأيت اليابسة من بعد، آه كم هي بعيدة، كيف سأستطيع السباحة وحدي، ولكنني صممت كانت صورة إيمان ترتسم بوضوح شديد أمام عيني، لمعان عينيها، حبات العرق الصغيرة تنضح من جبهتها وهي تلعب أنفاسها وهي نائمة، آه، إيمان، كنت أسبح وأسبح بقوة لا تعرف اليأس، وشعرت أن المسافة بدأت تقصر وأني بعد وقت قليل سأضم حبيبة قلبي إلى صدري، ولمحت صخور الشاطئ، وداهمتني رغبة بالإقياء من رائحة كريهة انبعثت من هذه الصخور، كانت الشمس تقارب على المغيب وأخذ الغسق يلون الطبيعة بألوانه السحرية البديعة كنت على وشك الانهيار من التعب، ولكني قاومت وتجلدت وأخذت أسبح وأسبح، واشتدت العتمة حولي، ولمحت خيالات أشخاص أم أنها تهيؤات بصرية من تعبي الشديد... وتابعت السباحة باتجاه الصخور فسمعت أصواتاً بشرية تختلط مع أصوات البحر في أذني ودققت النظر في العتمة فلمحت عدة أشخاص كانوا يقفون بهدوء وينظرون باتجاهي، آه ليت أحدهم يساعدني ويجرني إلى الشاطئ، كنت أجرُّ نفسي لاهثة وأخذت نظراتي تزوغ من التعب والإرهاق، واقترب الأشخاص من حافة الصخور لم أتبين وجوههم لأن الشمس كانت قد اختفت في البحر... وبدأ الظلام وصرخ أحدهم بصوت جهوري: كنا واثقين انك ستحاولين العودة، وأن كل افتعالك للموت غرقاً كان حيلة منك، وأعطى إشارة بيده فرفع الرجال بنادقهم وانهال الرصاص باتجاهي وغطى على موسيقى الموج، كنت من التعب لدرجة لم أشعر بدخول الرصاص إلى جسدي وامتلأ جسدي بثقوب كبيرة سال منها دم أحمر حار امتزج بماء البحر، وسقط إلى القاع، فنمت للحال زهوراً رائعة الألوان لا تعرف الذبول...

نائلة الإمام شاعرة الشهادة والشهداء

بقلم: عيسى فتوح

نائلة محمد الإمام شاعرة وكاتبة ومربية، ولدت عام ١٩٤٩ في دمشق، ونشأت في أحد بيوتاتها القديمة، لأب يعمل في سلك القضاء، وأم شركسية من أسرة (أباظة) هاجرت من قفقاسيا، واستوطنت حي المهاجرين بدمشق.

درس والدها الحقوق في كلية المقاصد الإسلامية في بيروت، حيث تعرف بنخبة من الطلاب الذي أصبحوا فيما بعد أدباء ورجال سياسة ووطنية مثل رياض الصلح (١٨٩٤ – ١٩٥١)، وعمر حمد أحد شهداء السادس من أيار ١٩١٦، والشاعر خير الدين الزركلي (١٨٩٣ – ١٩٧٦) وغيرهم.. وكان واسع الاطلاع ومثقفاً، أتقن اللغتين العربية والفرنسية، وامتلك مكتبة غنية وعامرة بألوان المعارف والفنون، حتى ضاق بها البيت. وقد اطلعت نائلة من خلالها على آثار المتنبي والمعري وأبي تمام والبحتري وشوقي (١٨٦٨ – ١٩٣٢) والعقاد (١٨٨٩ – ١٩٦٤) وجبران (١٨٨٣ – ١٩٣١) ومي زيادة (١٨٨٦ – ١٩٤١).. وقرأت كتب كليلة ودمنة لابن المقفع، والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، والكامل للمبرد، والبيان والتبيين للجاحظ وغيرها..

ولم تكتف بالاطلاع على هذه الآثار، بل قرأت مجلدات مجلات الثقافة لأحمد أمين (١٨٨٦ – ١٩٥٤) والرسالة لأحمد حسن الزيات (١٨٨٥ – ١٩٦٨) والكاتب المصري لطه حسين (١٨٨٩ – ١٩٧٣) وآخر ساعة، وصباح الخير، وجريدة أخبار اليوم وغيرها مما كان يحمله أبوها معه إلى البيت يومياً، فهي تقول إنها نادراً ما كانت تراه يعود من المحكمة دون أن يحمل معه رزمة من هذه المجلات وغيرها..

درست المرحلتين الابتدائية والإعدادية في المدرسة الإنكليزية أو (الإنجيلية) في حي

(باب توما) بدمشق، ثم انتسبت إلى دار المعلمات، حيث لقيت من مديرة الدار بلقيس عوض، ومدرّسة اللغة العربية فيها نهاد العطار - أخت الدكتورة نجاح العطار - الكثير من الرعاية والاهتمام والتوجيه والتشجيع على نظم الشعر.. ولا تزال زميلاتها حتى اليوم يذكّرنها بالقصائد التي كانت تلقيها في الحفلات الختامية التي تقام نهاية كل عام.

حين حصلت على شهادة دار المعلمات، وشهادة الدراسة الثانوية معاً في نفس العام، انتسبت إلى قسم اللغة العربية في كلية الآداب بجامعة دمشق، ونالت شهادة الليسانس في آداب اللغة العربية وعلومها وبعد أن عملت مدة في التدريس في كل من دمشق والسعودية والإمارات العربية المتحدة حتى عام ١٩٩٩، فكرت بالعودة إلى متابعة الدراسة لنيل شهادتي الماجستير والدكتوراه من جامعة القاهرة، وكان موضوع أطروحتها عن الناشئ الأكبر أبي العباس عبد الله بن محمد الأنباري المتوفى عام ٢٩٣ هـ الذي أغفله مؤرخو الأدب لأسباب سياسية ومذهبية.

نشرت نائلة الإمام أشعارها في عدد كبير من المجلات والصحف العربية مثل: الثقافة والخليج، والاتحاد، والبيان، والوحدة، والحياة، والمحرر العربي، والمجد.. وشاركت في عدد من الندوات والأمسيات الأدبية.. ونالت عدداً من الجوائز من وزارة التربية ومؤسسة الاتحاد في الإمارات العربية المتحدة، بمناسبة مرور ربع قرن على تأسس هذه الدولة.

تعترف بأنها تأخرت في نشر ديوانها (لا أتكلم مع الفراغ) حتى عام ٢٠٠٧، وبأن بعض تلميذاتها قد سبقنها في نشر دواوينهن، وقد أطلقت عليه هذا الاسم إشارة إلى بيت معروف للشاعر نزار قباني (١٩٢٣ - ١٩٩٨) يسخر فيه من شعراء الحداثة أو مدّعيها قائلاً:

يتكلمون مع الفراغ وما همُ
عُجْمٌ إذا نطقوا ولا أعـرابُ

وقد أهدت ديوانها الذي لم تجمع فيه كل شعرها، إلى والدها محمد الإمام «الذي أحب أن يناديه الناس بـ (أبي نائلة) إكراماً للبنات وإعلاء لشأنهن». ولها أيضاً مخطوط شعري تحت الطبع بعنوان (عيون غزة).

شعرها

تقول نائلة في المقابلة التي أجراها معها بيير إيليا البازي، ونشرت في جريدة الثقافة الأسبوعية في آذار ٢٠٠٤: «إن شعرها هو صدى لما تحسه، ولما تعانيه هذه الأمة المنكوبة، وإنها تؤمن بأنّ أعذب الشعر أصدقه، وتقصد الصدق الفني طبعاً..»».

ولذلك تمحورت قصائدها في الديوان حول ما يقاسيه الوطن العربي والشعب العربي من متاعب وهموم وأوجاع ومآس في فلسطين والعراق ولبنان... وغلب عليها الطابع القومي. فكتبت عن أكثر من شهيد وشهيدة ممن سقطوا في العراق وجنوب لبنان، وغزة وجنين ونابلس وطولكرم.. وتخص منهم الشهيدين شاكر حسونة الذي جرّ الجنود الصهاينة جثته في شوارع نابلس كما تجر الوحوش الضارية فريستها. تقول في القصيدة:

أيقظوهُ منْ مَواتهْ
روَّعوا في جفنهِ سربَ حمامْ
جرَّروهُ فـي دَروبَ الذاكره
في رؤى القدسِ ودمعِ الناصره
جرَّحوا جرحاً تبَرْعمْ
عندَ سفحِ القلبِ يَدمى
في سهولِ الخاصره

وتقول في قصيدتها (وفاء إدريس الاستشهادية الفلسطينية):

عندما زُفَّتْ إلى الموت وفاءُ
وتداعى الشعراءُ
للوليمه
رقصَ السيفُ اليَماني
في رحاب المهرجانِ
وعلا قرعُ الطبول
زغردت بيضُ الغواني
في حمى مسرى الرسول
كُتِبَ القتلُ علينا والقتال
ولَكم جرُّ الذيولْ

وقد لحظ الشاعر الدكتور نذير العظمه هذا الاتجاه في ديوانها، فعلّق عليه قائلاً: «هذا الديوان مخصص للشهداء الذين ضحوا بدمائهم في سبيل الوطن، والشاعرة نائلة عندها حساسية خاصة للشهادة، ترفعها من المستوى الوطني والقومي إلى المستوى الجمالي الشعري، فتغني الأجيال الصاعدة من أجل مصير أفضل وغد أجمل..».

إلى أن يقول: «أنا قرأت الديوان، فوجدت أن ثمانين بالمئة منه مرصود لشهداء فلسطين والعراق والمرحلة الحاضرة، ولم أجد شاعرة من قبل خصصت ديواناً كاملاً تقريباً للشهداء، لذلك سميتها (خنساء الشهداء) أو (خنساء الشهادة)، وهي لا تبكي الشهداء بقدر ما تغني تضحياتهم، وتهيب بشكل غير مباشر بالأجيال الصاعدة ليقدروا هذا الفداء العظيم. نحن بحاجة إلى شعر من هذه النكهة، لأننا أصحاب إرادة حق في سبيل تحرير وجودنا وتقرير مصيرنا، فالفن يرافق السياسة، ويرافق النهج القومي من أجل تحرير كاملٍ لأرض الوطن وللأجيال المستقبلية».

كما لحظ أيضاً الموسيقا الداخلية والخارجية في شعرها، وأثنى على طريقتها في المزج بين البحور، وخلص إلى أن للشاعرة أسلوبها الخاص الذي لا يشابه أي أسلوب آخر، وأنها تجمع بين الأصالة والمعاصرة.

* * *

وعلى الرغم من أن ديوان نائلة الإمام قد تمحور حول الشهادة والشهداء.. فإنه لم يخل من بعض القصائد التي ابتعدت فيها عن هذا المنحى، مثل (دعاء) التي استوحتها من سهرة طرب وغناء ولهو وقصف، فقد سئمت صراخ الأسرى، ولحم الشهداء، واعتبرت أن كل من مات في مقاصير الغناء شهيداً:

يرتقي الفنُ الجميلْ
كلما شفَّت غلائلْ
وانجلى خصرٌ ونهدْ
يا طويلَ العمرِ "حَسْبُكْ"
كلُّ حيٍّ للفناءْ
قد سئمنا صرخةَ الأسرى
ولحمَ الشهداءْ
قيلَ في غزةَ جوعٌ
يا لبؤسِ البؤساءْ
للحمى والأهلِ ربٌّ
ولكمْ صيدُ الظِباءْ
كلُّ مَنْ ماتَ شهيدٌ
في مقاصيرِ الغناءْ.

ومثل قصيدة (الكلمة الحلوة) التي كتبتها لزوجها الذي يأسرها بالكلمة الحلوة، ويملكها بالرفق والحنان، فهو وحده الذي تهواه وترجوه في هذه الدنيا:

يا آسري بالكلمة الحلوه
يا مالكي بالرفقِ والنجوى
يا رائعَ الودِّ
يا نبلُ يا نخْوه
ما بالُ عينيكَ؟!!!
روحي لكَ الفدوى
ما همَّني الدنيا؟
مادمتَ لي سلوى
يا أنتَ مَنْ أرجو
يا أنتَ مَنْ أهوى...

وقصيدة (بلودان) التي تهرب الضوضاء من ضوضائها، وتقيل الروح في حضن السكينه، وحيث تهجر الساعات أقفاص الزجاج، وتقيس الشمس بالظل خطاها، وتقرع الأطيار أجراس المساء، وينعس الليل على خد الصباح، وتطفئ الشمس قناديل النجوم:

ههنا يعتزلُ الوقتُ لهُاثَهْ
تهجرُ الساعاتُ أقفاصَ الزّجاجْ
وتقيسُ الشمسُ بالظلِ خُطاها
تقرعُ الأطيارُ أجراسَ المساءْ
في دروبِ الحلمِ، في عَتْمٍ مُضاءْ
ينعَسُ الليلُ على خدِّ الصباحْ
تطفئُ الشمسُ قناديلَ النجومْ
تغسلُ النبعَ ثريَّاتِ الكرومْ
وغلالاتِ الغَمامْ

وقصيدة (من قال إن الحب مات) التي قالتها في ذكرى رحيل الشاعر الكبير نزار قباني الذي أطلقت عليه لقب (شاعر الحب) وتذكرت وهي ترثيه بيته الدمشقي القديم، والعرائش الخضراء التي تفرش جدرانه، والبنفشه، والخزامى، والفستقية وسط باحة المنزل، وقطة الدار الكسولة التي لم يعد هناك من يطعمها بعده:

شاعرَ الحبِّ
دمشقُ الشامُ تُهديكَ السلاما
مُرَّ بالبيتِ القديمْ
فالعريشاتُ أُوَامَا
ومرايا الياسمينْ
هَرْهَرَتْ أقمارها
عاماً فعاما
والبَنفشَى - لستُ أوصيكَ حبيبي -
والخُزامى
وسماءُ الفُستقيَّهْ
ملعبُ النَّارَنْجِ، مرآةُ النُّجومْ
نَذَرتْ عن لَغْوِهَا الحلوِ صياما
قطَّةُ السطحِ الكسولهْ
لم تذُقْ بعدُ طعاما
فحراماً - نورَ عيني - حراما
والعصافيرُ وبنتُ القبرَّاتْ
بَعُدَ الشرُّ تُفدَّى يا نزارْ
أنتَ ذا ملْءُ العيونِ
والهوى والأغنياتْ
لا تصدقْهُم - حبيبي - دُمْتَ لي
مَنْ قَالَ: إنَّ الحبَّ ماتْ؟!!!

* * *

كم كنت أتمنى - بعد أن استعرضنا أهم الاتجاهات في شعر نائلة الإمام - لو لم تتأخر في إصدار ديوانها حتى عام ٢٠٠٧، ولم تكتفِ بالقصائد الأربعين التي اختارتها فيه، وأن تسارع لإخراج كنوزها ولآلئها الشعرية المخبأة.

الشعر القومي بين الوجدان الذاتي والوجدان الجماعي

بقلم:
محمد دعاوي

يقول أنيس المقدسي: (مهما يكن الأدب وجداناً شخصياً فإنه لا ينحصر في ذات صاحبه ويبقى هناك بمعزل عن كل الحركات الفكرية والاجتماعية التي تنشأ في بيئته وتمس حياته).

فالأديب عندما يحاول أن يبدع قصيدة أو رواية فإنه لا يفعل ذلك لمجرد التعبير عن انفعاله وخلجات نفسه فحسب بل يدرك أيضاً أنه في عمله الأدبي يخاطب الناس ويحرص على نقل تجربته إليهم وعلى مشاركتهم إياه في مشاعره وإلاّ اكتفى بنسخة واحدة من ديوانه وهذان الوجهان المتقابلان أو هذه الازدواجية سمة لازمة في كل أثر فني أو عمل أدبي، فالفن مرآة للحياة تتجلى فيه بدقة وأمانة وبرغم البذرة الفردية التي تتفتح في أعماق الفنان لا يعقل وجود أدب أو فن إلا في وسط اجتماعي طالما أن الفن تعبير عن تجربة شعورية وإيصال لها.

وإبان الحرب العالمية الأولى ظهر تياران بارزان في الأدب العربي الحديث هما التيار الوجداني والتيار القومي الاجتماعي وكانا يسيران متصاحبين متوازيين يتعانقان حيناً ويتجافيان أحياناً ولذلك كان لا بد للباحث في سبيل فهم أحدهما من فهم التيار الآخر لأنهما كليهما يمثلان وجهين متقابلين لحياة عربية واحدة.

الرومانسية كما يقول د. محمد مندور (تعتبر حالة نفسية وتعبيراً عن تلك الحالة أكثر من كونها مذهباً أدبياً أحلّ أصولاً فنية محل أصول أخرى) وهكذا نرى أن الوجدان الفردي أو التيار الرومانسي لا يخلو من دلالة اجتماعية وإن كان الأمر يبدو على خلاف ذلك

فالرومانسية في فرنسا نتجت عن شعور بخيبة الأمل إثر انهيار الأمجاد التي أملها الفرنسيون في شخص نابليون بونابرت والأمر نفسه ينسحب على حالة الخيبة والصدمة والألم التي عاشها الشارع العربي بعد إخفاق الثورة العربية الكبرى والفشل في إقامة الدولة العربية الواحدة والمفاجأة برؤية جحافل الاستعمار الغربي تجتاح البلاد العربية فوجد الشعراء العرب ضالتهم المنشودة في الرومانسية فاتخذوا منها وسيلة للتعبير عن آلامهم العميقة وسخطهم وشكواهم.

وقد انطوى الكثير من هذا الشعر برغم ذاتيته على دلالة اجتماعية ذات شأن كبير فالشاعر المحزون يئن في شعره أسى وحناناً متألماً من الجرح البليغ الذي أصاب وطنه فهو يصور آلام قومه من خلال آلام نفسه حتى أصبحت آلامه وآلام أمته ألماً واحداً في اتحاد صوفي لا انفصام له يقول الزركلي:

أبكي دياراً خلقت للجمال
أبهى مثال
أبكي تراث والعز غال
صعب المنال
أبكي نفوساً قعدت بالرجال
عن النضال
أبكي جلال الملك كيف استحال
إلى خيال

كما صارت مناجاة الطبيعة منزعاً أثيراً لدى الشعراء العرب في تلك الظروف العصيبة التي كانت تمر بها أوطانهم ووجدوا في ذلك متنفسا لعواطفهم المكبوتة وأفكارهم القلقة يقول خليل مردم بك مناجياً عصفورة الأرز:

لله ما هجت من أشجان مغترب
لما هتفت به بالدمع لباك
إذا بكيت فناءً شاقه سكنٌ
فما الذي في غصون الأرز أبكاك
ما نفرته عن روض الأريض سوى
حبائل نصبت فيه وأشراك

وهذا يذكرنا بمناجاة أبي فراس الحمداني للحمامة وهو في الأسر وكذلك يلجأ الشاعر شفيق جبري إلى مناجاة الطبيعة فيقول في قصيدته حمام الزيزفون:

شتان ما قلبي وقلبك
يا حمام الزيزفون
أنت الطليق فما تزال
من السهول إلى الحزون
وأنا المبرّح بالسلاسل
مثل تبريح السجون

ثم يكتب معلقاً على قصيدته (لجأت إلى الطبيعة لعلي أجد في آفاقها ما يعينني على التنفس فلم أجد في خاتمة الأمر إلا الحمام وليست غايتي هديل الحمام وإنما كانت غايتي هذا التناسب بين نوحه ونوح البلاد).

وقد حملت الرومانسية في داخلها ثورة لكنها ثورة البائسين الذين أدركوا حقيقة عجزهم عن مواجهة الواقع القاهر ووجدوا في صورة وطنهم صورة نفوسهم المحملة بالألم يقول نسيب عريضة في قصيدة النهاية:

كفنوه
وادفنوه

اسكنوه
هوة اللحد العميق
واذهبوا لا تندبوه
فهو شعب ميت ليس يفيق
هتك عرض
نهب أرض
شنق بعض
لم تحرك غضبه
فلماذا نذرف الدمع جزافاً
ليس تحيا الحطبة

لقد كانت القصيدة روحاً ملتهبة حطمت التفاعيل الرتيبة وانطلقت كالقذائف تقع هنا وهناك ولكن هذا الانطلاق الفائر المزمجر كالنيزك الهاري ما يلبث أن يصير إلى رماد على حد تعبير الدكتورين إحسان عباس ومحمد يوسف نجم في كتابهما المشترك الشعر العربي في المهجر.

ظل كثير من الشعراء يؤثرون هذا المزج المحبب بين الذاتية والموضوعية على نحو ما وجدناه لدى خليل مردم بك والزركلي ونسيب عريضة وجنح كثير منهم لتصوير حالة قومهم من خلال نفوسهم فيما يشبه الحلول المتبادل الذي أشار إليه بودلير في أن العالم الخارجي يحلّ من نفس الشاعر وتحلّ هذه النفس بدورها في العالم على نحو ما يشبه وحدة الوجود لدى المتصوفة وكثيراً ما انبثق الشعر الرومانسي والشعر الثائر معاً من قصيدة واحدة يقول د. عمر الدقاق: (والظاهرة الطريفة أن كثيرا من الشعراء الرومانسيين كانوا في الوقت ذاته في طليعة من مارس الشعر القومي من مثل الشاعر القروي وإلياس فرحات وأحمد زكي أبو شادي وأبو القاسم الشابي والأخطل الصغير ونقولا فياض وإبراهيم طوقان ومحمد مهدي الجواهري وعمر أبي ريشة وأنور العطار وخير الدين الزركلي فقد جعلوا شعرهم موزعاً بين خفقات قلوبهم ونداءات بلادهم وقدموا لنا أصفى الشعر القومي والوجداني على السواء وكانت دواوينهم في الغالب تعكس هذه الظاهرة بجلاء حتى أننا نجد من بينهم من كان يقصر بعض دواوينه على الشعر الوجداني ويقصر بعضها الآخر على الشعر القومي فكان للشاعر القروي مجموعة الأزاهير كما كانت له مجموعته الأخرى الأعاصير كما كانت للشاعر محمد العدناني مجموعته الشعرية الوجيب ومجموعته الأخرى اللهيب) ويقول الدكتور الدقاق أيضاً: (الشعر في جوهره تعبير عن الشعور والشعر القومي تعبير عن وجدان الأمة من خلال نفسية الشاعر).

وهكذا نرى أن خفقات قلوب الشعراء العرب في العصر الحديث عبرت عن نجوى نفوسهم وخلجات أعماقهم وأغوار وجداناتهم وهمسات أحاسيسهم ووشوشات مشاعرهم كما عبرت في الوقت نفسه عن صيحات ثوراتهم ونداءات مشاعرهم القومية وزمجرات حناجرهم الثائرة وخطابات أفئدتهم إلى أبناء أوطانهم وصرخات كياناتهم الغاضبة وفورات براكين صدورهم الملتهبة وأصداء أجيج انفعالاتهم ودوي استنهاضاتهم لشعوبهم.

البطل صلاح الدين الأيوبي نزيل دمشق في وجدان بعض شعراء عصره

بقلم:
أحمد سعيد هواش

كان صلاح الدين الأيوبي من كبار الأبطال الذين لهم ذكرٌ خالد في تاريخ العرب والإسلام، يقترن اسمه الكبير بالحروب الصليبية، وباسترداد فلسطين وبيت المقدس من الفرنج الذين اغتصبوا تلك الديار حيناً من الزمن طويلاً.

وقد كان هذا البطل معقد آمال العرب والمسلمين في عصره، رأوا فيه القائد الملهم القدير على استرداد الوطن السليب على يد أعدائه الطغاة الظالمين، وكان صلاح الدين حب للأدب وحدب على أهله، يغمرهم بعطاياه، ويستهديهم شعرهم، ويغدون إليه ينشدونه إنتاجهم، أو يرسلون إليه بما نظموه، وكان يستحسن الأشعار الجيدة ويرددها في مجالسه، حتى قيل:

إنه كثيراً ما كان ينشد قول الشاعر:

وزارني طيفُ مَنْ أهوى على حذر
مَن الوُشاة وداعي الصُّبح قد هتفا
فكدتُ أوقظُ من حولي به فرحاً
وكاد يُهْتك سِتْرُ الحبِّ بي شغفا
ثمّ انتبهتُ، وآمالي تُخَيَّل لي
نيل المُنى، فاستحالت غبطتي أسفا

وهذا الشعر الذي استحسنه أو أرسله إلى بعض صحبه يدل على ذوق سليم؛ لجودة معناه، واستقامة عبارته.

وكثيراً ما كان يسهر بالحديث عن الشعر والشعراء، وكان مغرماً بديوان أسامة بن منقذ، وكان له محفوظ كبير من الشعر يردده في مناسباته، وكان كتاب الحماسة الأبي تمام الطائي من حفظه.

وقد ظفر البطل صلاح الدين الأيوبي بتقدير الشعراء وإعجابهم، فأحاطوا به، ينظمون أسباب مجده، ويشيدون بوقائعه وجهاده، ويسجلون كل ما قام به من حركات مباركة في سبيل مجد العرب والإسلام، فقد تضافر على رسم بطولته عددٌ كبيرٌ من شعراء عصره نكتفي بذكر بعضهم: أسامة بن منقذ، ابن الساعاتي، فتيان الشاغوري، وجيش الأسدي، نشوء الدولة أبو الفضل. سعيد بن عبد الله، والعماد..

لقد صوَّرَ الشعر التيارات التي كانت تعترض القائد البطل صلاح الدين الأيوبي وتقف في وجهه ويتم التغلب والانتصار عليها، فلما تم لصلاح الدين الانتصار على شاور والفرنج أرسل إليه (أسامة بن منقذ) قصيدة أولها؛ (سلم على مصر، لا ربع بذي سلم) وفيها يقول:

الناصرُ الملكُ المُوفي بذمَّته
ومَنْ نَدى كفِّه يُغني عن الدِّيم
ومنْ إذا جرَّد البيضَ الصَّوارم في الـ
ـسيجاء أغمدها في البيض والالقمم
وردَّ طاغيةَ الإفرنج يحسبُ مَا
رجاه من مُلْك مصْر كان في الحلم
ولّى، وراحته صفرٌ وقد مُلئت
بعد الطَّاعة من يأسٍ ومَن نَدَمٍ
يُصعَّدُون على ما فَاتهم نفساً
لولا فَح البحر أضحى الموجُ كالحمم
وفي السَّلامة، لولا جهلهم، ظفرٌ
لمن أراد نزال الأسد في الأجم

وهو هنا يصور ما أصاب الفرنج من خيبة أمل عندما أخفقوا في الاستيلاء على مصر، وتبددت آمالهم وصارت أحلاماً، ويصور الشعر بأسهم وندمهم، والزفرات الحرى يصعدونها حزناً وأسى.

كما حدثه أسامة في قصيدة أخرى عن انتصاره على (شاور) الذي كاد يضع البلاد بين أيدي الفرنج تحقيقاً لأطماعه، فقال له:

أقمتَ عمود الّدين حين أماله
لطاغي الفرنج الغُتْم طاغي بني سعد
أفدت بما قدّمت مُلكاً فخلّدا
وذكْراً مدى الأيَّام يُقْرَنُ بالحمد
وذكرك في الآفاق يسرى كأنه الصّـ
ـباح له نشرُ الأُلوّة والنَّدّ

والبيت الأخير يدل على ما كان لهذه الأعمال التي قام بها صلاح الدين من ذكر مدو في أرجاء العالم العربي والإسلامي يومئذ.

ولقد جاء صلاح الدين إلى دمشق ومعه تاريخ مجيد تتفتح له قلوب الرعية في دمشق، فقد انتصر على الفرنج، وحال بينهم وبين استيلائهم على مصر، كما ردهم عن دمياط عندما هاجموها من البحر، وانتصر على شاور، واستطاع أن يفك الحصار الذي فرض عليه بالإسكندرية، واقام العدل في مصر، فكان ذلك كله من الأسباب التي جعلت الرعية في دمشق يفرحون بمقدمه، فقال الشاعر وحيش الأسدي:

ويومُ دمياط والإسكندرية قد
أصارهُ مثلاً في الأرض قد ضربا
والشامُ لو لم يدارك أهله اندرست
آثارهُ، وعَفَتْ آياته حقبا

ويرى نشوء الدولة أبو الفضل بعد أن ملك صلاح الدين دمشق أن الله يعده لأمر عظيم؛ وذلك إذ يقول:

أتى بعدما نادتْ دمشقُ أبُعده
إلى ربِّها: تالله مسّني الضرُّ
فلله حمدٌ لا يزال مجدَّداً
على ما حبا من فضله، وله الشكر
أتاح لنا من بعد يأس مبرّح
مليكاً غدا من بعض خدّامه الدّهرُ
ولم لا يجوزُ الأرض شرقاً ومغرباً
ولله في إعلاء رتبته سرٌّ

ومن ذلك ما كتبه إليه أسامة بن منقذ من قصيدة قالها بعد معركة لصلاح الدين مع الفرنج عند عسقلان:

فسر} إلى الشّام، فالملائكة الأبرارْ تلقاك مُلتقىً حمدا
فهو فقيرٌ إليك يأملُ أن تُصلح بالعدل منه ما فسدا
والله يُعْطيكَ فيه عاقبة النَّصر، كما في كتابه وعدا
فما حباك الورى، وألهمكَ العدْلَ وأعطاك ما ملكتْ سُدى

ولما انضمت دمشق إلى ملكه زاد الأمل فيه رسوخاً، ودعاه الشعراء إلى استعادة الوطن السليب، يقول له سعيد بن عبد الله:

فلسلم صلاح الدّين، وابق لدوْلة
ذلّتْ لدولتها ملوكُ زمانيها
وأنهضت إلى فتح السَّواحل نهضة
قادت لك الأعداء بعد حيرانها

فإذا فتح صلاح الدين بيت المقدس وضع الشعر فيه أمله أن يجتث أصل الفرنج من باقي ديار فلسطين، إذ يقول العماد:

قل للمليك صلاح الدّين أكرم منْ يمشي على الأرض، أو مَنْ يركب الفرسان
من بعد فتحك بيت القدس لبس سوى (صور) فإن فتحت فاقصد (طرابلسا)

إلى أن يقول:

وأخل ساحل هذا الشَّام أجمعه منْ العُداة ومن في دينه وكسا

ولما فتحت طبرّية وهزم الفرنج عند (حطين) سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، تقدم الشعر مهنئاً صلاح الدين ذاكراً فضله وبلاءه في المعركة، وقد أنشأ شاعر دمشق ابن الساعاتي قصيدة جاء فيها:

وما طبرّيةٌ إلاَّ هديٌّ
ترفَّعُ عن أكفِّ اللاَّميسينا
حصانُ الذَّيل لم تُقْذفْ بسوء
وسل عنها الليالي والسنينا
فضضت ختامها قسراً، ومنْ ذا
يصعدُ الليث أن يلج العرينا

إلى أن قال:

فلا عدم الشام وساكنوه
ظبي تشفي بها الدَّاء الدفينا

ويصور الشاعر طبرية بالعروس، ويمضي متحدثاً عن هذا الفتح الذي حقق آمال العرب والمسلمين..

ومن قصيدة للشهاب فتيان الشاغوري يصف معركة (حطين):

جاشت جيوشُ الشّرك يوم لقيتهم
يتذامرون على متون الضُّمّرِ
أوردت أطراف الرّماح صدورهم
فوعْنَ في علق النَّجيح الأحمر

إلى أن قال مظهر معاملة البطل صلاح الدين الإنسانية لنساء أعدائه:

آمنُ سرْ بهمْ، وحننت حريمهم
ودرأت عنهم قاصمات الأظهر
ما إن رآك الله إلاّ آمراً
فيهم بمعروفٍ، ومُنكر مُنْكَرِ

وأكبر ما نال تمجيد الشعراء في أيام صلاح الدين معركة (بيت المقدس) التي دارت بعد معركة حطين، وقد وقف الشعراء ينشدون صلاح الدين شعرهم، وأرسل كثيرٌ منهم قصائد التهنئة إليه عندما لم يستطيعوا إنشاده، وظفر الأدب العربي بذخيرة من شعر الفتح يمتاز كثير منه بالقوة وتدفق ماء الحياة، يقول الشريف النسابة المصري من قصيدة:

أرى مناماً ما بعيني أبْصرُ
القدس يُفتحُ والفرنجةُ تُكسرُ
ومليكهم في القيد مصفودٌ ولم
يُرَ قبل ذاك لهم مليك يؤسرُ

إلى أن قال:

فتح الشآم، وطهّرَ القدس الذي
هو في القيامةِ لأنام المحشرُ
يا يوسف الصّديق أنت لفتحها
فاروقها عمر الإمام الأطهرُ

والشاعر هنا معجبٌ بهذا الفتح إعجابا ظن معه أن ما يراه بعينه هو حلم تمر أحداثه في المنام، وابن الساعاتي يعده آية عظمى، وذلك إذ يقول:

أعيّضا وقد عاينتُّم الآية العظمى
لأيَّةِ حالٍ نذخرُ النَّثر والنّظما

تلك لمحات مما قيل في البطل صلاح الدين الأيوبي نزيل دمشق التي نحتفل بها: عاصمة للثقافة العربية، وهي فخورة به كبطل حرر القدس الشريف وباقي المدن العربية التي دنسها الصليبيون الغزاة، ودحرهم على أعقابهم، وقد عبَّر الشعراء عما يحسونه نحو فاتح بيت المقدس، وهازم الفرنج الهزائم المنكرة، وما كان يتصف به من أخلاق جمعت حوله قلوب معاصريه.

تحية للبطل صلاح الدين الأيوبي، ولم تعد أرحام الأمهات العربيات إنجاب حفيد لصلاح الدين يحرر ما احتله الصليبيون الجدد..




عذاب...

شعر: مدحة عكاش

عـــذِّبيني، وأكثـــري مـــن عـــذابي

ودعـــيني في حســـرتي واكتئـــابي

أيُّ شـــيءٍ أخـــافُ منـــكِ عليـــهِ

بعـــدَ أن ضـــاعَ في هـــواكِ شـــبابي

* * *

إيـــهِ سمـــراءُ!! والليـــالي المواضـــي

لم يـــزلْ طيفُهـــا علـــى أهـــدابي

يـــومَ أفضـــتْ شـــفاهُنا إذْ تلاقـــتْ

بحـــديثِ الأحبـــابِ للأحبـــابِ

وغفونـــا علـــى أمـــانٍ عـــذابٍ

وصـــحونا علـــى أمـــانٍ عِـــذابِ

لا تقـــولي: كـــانَ الغـــرامُ وكنَّـــا

ودعـــيني لا تحلمـــي في إيـــابي

الصِّـــبا الغَـــضُّ عهـــدُهُ قـــد تـــولَّى

وثقيـــلٌ علـــيَّ عهـــدُ التَّصـــابي






ذات صباحٍ، وبعد ليلةٍ مشحونة ببروق الكوابيس، استيقظتُ من نومي بقرفٍ، وبدأتُ بتدليك رقبتي التي أصابها التصبب ربما لأنني نسيتُ إغلاقَ نافذتي المطلَّة على الشتاء والبطالة.

رأسي كرحم امرأة حُبلى بأربعة توائم مشوَّهة.. أسيرُ باتجاه النافذة، بعدما زررت ياقة البيجامة جيداً، أتأملُ الأشجار المنتصبة على جانبيّ الطريق..

السماء تُلقي برذاذها المتسرِّب من الشلال المتجمد الأبيض.. طفل يركضُ خلف القطة الصغيرة، التي تختبئ تحت إحدى السيارات..

من بعيد يظهر قاسيون معانقاً الأفقَ، بدا كماردٍ أجلسه التعب، خيل إليّ أنه يلهث ولكن ما الذي يدفعه للهاث؟

فجأةً، يُزلزلُ رعدُ صوتٍ يهزُّ أركانَ الحيّ:

- غاز.. غاز..!

أنظرُ ناحية اليمين مذعوراً، كانت سيارة سوزوكي تسير ببطءٍ وقد تكدَّست فيها أسطوانات الغاز، وفوقها رجلٌ ضئيلُ الحجم أسمر الوجه، يضعُ على رأسه طاقيةً سوداء لاكها الزمن. ينظرُ في جميع الاتجاهات ليتابع بصوتٍ أعلى من ذي قبل:

- غاز.. غاز..!!

«يا لَلهول... أيُّها الرجل الضئيل، من أين تأتي بمثل هذا الصوت الذي يبدو كأنهُ قُدَّ من جبال هملايا؟!».

شعرتُ بشيءٍ من الغيرة، أنا الذي يبدو صوتي ضعيفاً حتى مع استعمال مكبِّر الصوت!

لفحتني نسمةٌ باردة حرّكتْ راكدَ المشاعر المختلطة، صاحبُ المنزل الذي بعث إليَّ آخر تهديداته ليلة البارحة:

- لقد تأخرتَ ثلاثةَ أشهرٍ عن دفع الإيجار، سأمنحك مهلة يومٍ واحدٍ وإلاّ...

زوجتي التي هجرتني بسبب فقري ومرضي.. ابنتي الصغيرة هبة.. هذه الطفلة الجميلة التي اشتقتُ إليها كثيراً.. والبطالة.. هذه الساحرة الشريرة التي تقف لي بالمرصاد أينما ذهبتُ وأنَّى تحرّكتُ.. العجوز الفاجرة التي تطاردني في صحوي ومنامي..

لم أتمكّن من إتمامِ أسبوعٍ واحدٍ في أيّ عمل استلمته. صاحب متجر الملابس طردني لأنني متكبر وبطيء الحركة، صاحب المزرعة العجوز طردني لأنني كنتُ آكلُ من التفاح والأجاص والخوخ أكثر بكثير من الكمية التي أقدِّمها له ولعائلته.

أما أبو أحمد صاحب أكبر محل لكيّ الملابس في المدينة فقد وصل به الأمر لمطاردتي والمكواةُ المحمّاة على نارٍ جحيميَّة بيده لأنني أحرقتُ ما يزيدُ عن أربع قطع ملابس ما بين بنطالٍ وقميصٍ وسترة.. الأمر الذي عرّضَهُ لألسنة أصحابها المحمّاة، وبالرغم من الوساطات الكثيرة لم أتمكن من العودة للعمل لديه.

نسماتٌ باردة تتقاطرُ إليَّ، تتغلغلُ في خيالي المتشرد في كُلِّ مكان فتجمِّدُهُ عند أيكةٍ من أيكات الماضي الفاتنة والحزينة..

فدوى.. تلك الفتاة الحالمة ذات العينين الخضراوين والبشرة الحنطية، ما أكثر ما كانتْ روحي تغتسلُ في نقائهما الفردوسي، ما أكثر ما كنتُ أنهلُ من كوثر ضُحكاتها، لكنها هجرتني فجأةً ودونما سبب.. دون حتى أول حرف من كلمة وداع.

نسماتٌ شديدةُ البرودة.. رياحٌ قطبية تجمِّدُ خيالي وتحركهُ كيفما تشاء، يحطّمُهُ فجأةً زعيق البائع المتجوّل:

- بطيخ.. بطيخ..

ترتسمُ على شفتي ابتسامةٌ باهتةٌ «أَمِنْ أجل كُلِّ هذا الحزن خلقتني يا إلهي؟!».

الكرة الأرضية بطيخة، لا أحد يعلمُ ماذا يختبئ بداخل المستقبل، القدر يجلسُ على أريكة وثيرة وينظرُ إلينا بعينين نصف مغمضتين حيناً وبعيونٍ مفتوحة عن آخرها أحياناً، ليهزَّ قبضته في وجهنا في معظم الأحيان.

«أنا صرخةٌ تطرقُ أبواب مئات الشفاه بيأس علَّ إحداها تجرؤ على تبنيها! هل أنا إنسانٌ فاشلٌ..؟ ربما».

أغلقتُ النافذة جيداً بعد أن بدأ المطرُ يتساقط بغزارة، أرهقني البرد الممزوج بحرارة الحزن، أشعلتُ نار المدفأة ثم توجهت إلى المغسلة لأغسل وجهي.. لكن وجهي ظهر على المرآة بوضعٍ مائل! حدَّقتُ جيداً، تملّكني الذهول، تحسستُ رأسي ورقبتي بذعر، ليس فيهما ما يدعو إلى الريبة، فحصت إطار المرآة.. ليس فيها ميلان، فسألتُها بصوتٍ شوّهته الجروح:

- ما هذا؟ ما الذي حدث؟

أجابتني قائلةً:

- أنا أنقلُ الواقع بأمانة تامة!.

أعجب ما قرأت..

بقلم:
يوسف مسعد

بعد عجائب الدنيا السبعة، توجد في الطبيعة ومن صنع الإنسان ما هو عجيب وغريب، أذكر منها بعض ما مرّ في السطور..

- أطول جسر طبيعي في العالم هو (لاندمكاب ارش) في الولايات المتحدة الأميركية، يبلغ طول هذا الجسر (٨٨م) ويعلو (٣٠) متر عن سطح الأرض.

- أكبر مساحة جليدية في العالم هي (الأرنتاركتيك) للمحيط المتجمد الشمالي تبلغ (١٤) مليون كم٢ ويقدر وزنها بـ (١٢) مليار مليون طن، يتحول الثلج إلى جليد (٥٦) متر مكعّب.

- أضخم شجرة معروفة في العالم، أضخم جذع الشجرة هو لشجرة (سانتا ماريا) في المكسيك ويبلغ (٣٤) متراً ويقال أنه في عام ١٧٧٠ بلغ محيط شجرة كستناء وتدعى (شجرة المئة حصان) (٦٢) متراً وكانت تعيش على ضفاف أحد الأنهر في إيطاليا.

- في ترنسفال شجرة تين برّي امتدت جذورها (١٣٠) متراً في الأرض.

- أكبر بحيرة في العالم هي البحيرة العليا التي يقع قسم منها في الولايات المتحدة والآخر في كندا وتبلغ مساحتها (٨٢٣٥٠) كم٢ وتعلو عن سطح البحر (١٨٢) متر. أما البحيرة التي تتسع لأكبر حجم من الماء هي بحيرة (بايكال) (٢٤٠٠٠٠) كم مكعّب.

- قبل نصف قرن كان عدد ضحايا الثعابين في الهند (٢٠٠٠٠) عشرين ألف

نسمة لأنهم يحرمون قتلها وسبب تناقص هذا العدد اليوم استعمال الترياق ضدّ السم.

- أعلى نافورة ماء في العالم مركزها (أريزونا) في الولايات المتحدة، ترتفع المياه إلى علو (١٧٠) متراً والثانية في جينيف سويسرا وزنها (٧) أطنان وتتدفق منها المياه بكمية (٥٠٠) لتر في الثانية يصل علوها في الفضاء (١٣٠) متراً.

- المنطاد الذي ارتفع (٥٠٠) متراً اجتاز جبال الألب، علوّه (٣٠) متراً وعرضه (٢٠) متر يتسع لـ (٤٠٠٠) متر مكعب من الهواء الساخن مع غاز البروبان.

- أعلى الشلالات: يتساقط شلال (أنجيل) في فنزويلا بشكل درج من ارتفاع (٩٧٩) متراً ويعتبر أعلى شلال في العالم. يتبعه شلال (نوغيلا) في أفريقية الجنوبية بعلو (٩٤٨) متراً. أما أغزرها فهو شلال (غوايرا) في البرازيل ثم (نياغارا) في الولايات المتحدة - كندا.

- أثقل جرس في العالم هو (تساركولوكول) الذي صُبَّ في موسكو عام (١٧٣٣) يبلغ وزنه (١٩٦) طن، محيطه (٦,٩) متر، علوه (٥,٨) متر وسماكته /٦١) سم يعرض حالياً في الكرملين.

- إن أدغال غابة الأمازون تغطي مساحات تفوق قارة أوروبا كلها وأن أشجارها تشكل ثلث أشجار العالم.

- أطول قصيدة في العالم هي (المهايمارتا) التي ظهرت في الهند ما بين القرن (٤٠٠ - ١٥٠) ق.م، وتتألف من (٢٢٠٠٠٠) بيت شعر وثلاثة ملايين كلمة. أما ألياذة هوميروس فهي بطول (٢٢٠٠٠) بيت من الشعر بعد أن ترجمها المعلوف في لبنان.

- أطول دراجة في العالم تسير على ثلاث عجلات يقودها (٣١) شخص، صُنعت في أستراليا عام (١٩٧١).

- أكبر نصب تذكاري في العالم لجورج واشنطن وزنه (٣٥٧١٠) طن من الإسمنت أقيم في تكساس عام (١٩٣٩).

- مثلث الموت: يقع هذا المثلث البحري الشاسع في المحيط الأطلسي بين بورتوريكو برمودا أوبهاماس وقد اشتهرت بمثلث الموت لأن فيه وقعت حوادث اختفاء غريبة للطائرات والبواخر العابرة فوقه.

- كنيسة في كولومبيا في منجم ملح بعمق (١٨٠) متر تحت سطح الأرض حفرها عمال المنجم ملجأ لهم.

- في سورية مغارة المزوقة طولها تحت الأرض مسافة (١٨٠٠٠) كم طولها لمنفذها الآخر بمحافظة ادلب.

- غرفة الراهب (بحيرا) في بصرى حوران مبنيّة من خمسة أحجار فقط.

- كاتب هذه السطور تعرّض للموت المحتوم ثلاثين مرّة في حياته ونجاه الله فيشكره بلا عدد محسوب.

ابن حزم الأندلسي

نبذ الوزارة فصنف أربعمئة مؤلف

بقلم:
محمد عيد الخربوطلي

الأندلس في القرن ٤هـ

في مطلع القرن الرابع الهجري تولى حكم الأندلس عبد الرحمن الناصر، الذي استطاع أن ينقذ الحضارة العربية الإسلامية فيها من كل ما كان يتهددها من الأخطار الخارجية والفتن الداخلية، وبسياسته الحازمة جعل الأمن مستتباً في الداخل، كما خشيه أعداء الخارج.

هذا الإستقرار اقترن بازدهار فكري كبير، فقد اهتم عبد الرحمن الناصر بحماية العلوم والفنون والآداب.. وكل أنواع المعارف، كما شجع الأندلسيين على دراسة علوم لرياضيات والفلك والحديث بالإضافة إلى علوم الدين واللغة وآدابها والفقه والتفسير، وجمع في قصره مكتبة ضخمة وبعد وفاته سنة ٣٥٠هـ تول الحُكم ابنه الحكم المستنصر، فبلغت الثقافة في عهده منتهاها، فقد بذل كل ما في وسعه لتنشيط الحركة العلمية، وكان معتكفاً بنفسه على الكتب يقرؤها بنهم شديد كما كان يعلق عليها بقلم العالم المتمكن، فلم يعرف الأندلس حاكماً يحمل علمه وثقافته قبله أو بعده.

وكان من شدة عشقه للكتب أنه كان يقتنيها مهما كلفته من مشقه ومال، فقد صار الكتاب شغله الشاغل، وكان إذا سمع بكتاب نادر سعى بشتى الوسائل للحصول عليه، لذلك ضمت مكتبته نوادر الكتب من كل العلوم والفنون، خاصة كتب الفلسفة والأدب والفقه، وتذكر المصادر التاريخية أن مكتبته ضمت بين جدرانها أربعمئة ألف كتاب، لذلك ارتفعت مكانة الأندلس إلى الصدارة والزعامة العلمية في العالم، وصار مسجد قرطبة جامعة من أهم الجامعات في العالم في ذلك العصر، حتى الشعب الأندلسي ارتفع مستواه الثقافي، فلم يعد يوجد في الأندلس من يجهل القراءة والكتابة، حيث قضي على الأمية قضاء مبرما، في وقت كانت فيه أوربا ترزح تحت أعباء جهل متراكم.

وبوفاته سنة ٣٦٦هـ انتهى العصر الذهبي للأندلس، فقد ظهر المنصور بن أبي عامر ونجح في السيطرة على مقاليد الحكم، وما لبثت أن انقرضت دولة بني أمية من

الأندلس، وقد عاصر ابن حزم انحلال الخلافة الأموية واستقلال كل وال بولايته، كما شهد الفترة الأولى من ملوك الطوائف في الأندلس والتي زادت عن العشرين، فلم يذق طعم الإستقرار في صباه أو في رجولته، وقد أرجع بعض الباحثين ما اتصفت به نفس ابن حزم، من صلابة وصرامة إلى تلك الظروف السياسية القاسية التي عاش في كنفها.

هذه الإضرابات السياسية التي حفل بها عصر ابن حزم لم تقترن بأي انحلال فكري، فقد شهدت الأندلس نهضة أدبية كبرى في عصر ملوك الطوائف، ويعود ذلك للتنافس الشديد الحاصل بين الدويلات الصغيرة في ميدان العلوم والفنون والآداب وشتى المعارف، ويرجع المستشرق الإسباني (بالنشيا) هذا الإزدهار الفكري إلى عدة عوامل أهمها:

١- إن عصري الإمارة والخلافة كانا بمثابة فترة إعداد طويلة تجمعت خلالها مواد وافرة غزيرة في كل فرع من فروع الدراسات، واختمرت اختماراً طويلا.

٢- إن علماء قرطبة غادروها أثناء الفتنة وانتشروا في كل بلاد الأندلس، كما توزعت مجموعات الكتب التي كانت مختزنة في مكتبات قرطبة في كل البلاد.

لذلك تطورت الثقافة العربية الإسلامية في عصر ملوك الطوائف، فانتشرت العلوم بين أهل الأندلس، وأقبل المفكرون على وضع المؤلفات القيمة في كل فن، وكان من نتيجة ذلك أن كتب ابن حزم في تاريخ ومقارنة الأديان ما سبق به مفكري أوربا بقرون عديدة.

ولادة ابن حزم ونشأته:

أصل أسرته من فارس، جده الأعلى أول من أسلم وكان مولى يزيد بن أبي سفيان الأموي، وجده الخامس (خلف) أول من دخل الأندلس من آبائه، سكن في أول أمره في قرية (مَنت ليْشم) من إقليم الزاوية في عمل (أونية) من كورَة (لَبْلَة) غرب الأندلس، سكن أبوه قرطبة ووزر للمنصور محمد بن أبي عامر وابنه.

ولد أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم في آخر يوم من شهر رمضان سنة ٣٨٤هـ بمدينة قرطبة، في أسرة عريقة في النسب والعلم والأدب، فأبوه كان وزيرا عالما.

ونشأ في قصر والده نشأة مترفة لا تعرف إلا النعيم والنعم، فلم يعرف الفقر أو الحرمان، وعني والده بتربيته كثيراً حيث استقدم له العلماء لتثقيفه وتهذيبه، وتلقى تربيته الأولى على يد بعض النساء العالمات من أهل بيته، فعلمنه القرآن ورويته كثيرا من الأشعار كما دربنه على الخط، فكانت ثقافته أرقى ثقافة يثقفها أبناء العظماء، وما كانت المظاهر الخلابة التي يشاهدها في قصر أبيه لتحول دون رغبته في التناغي بالعلم والغرام بالأدب، وما كان الثراء ليبطره فيشغل نفسه بما لا يجدي عليه في حياته، وقد ذكر ذلك صراحة فقال:

"ولقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيري، لأني ربيت في حجورهن، ونشأت بين أيديهن، ولا جالست إلا وأنا في حد الشباب، وهن علمنني القرآن، وروينني كثيراً من الأشعار، ودربنني على الخط".

هذه البيئة النسائية التي نشأ في كنفها عملت على إرهاف حسه وإشعال وجدانه، فتطبعت نفسه بحب الجمال، كما تفتحت حواسه على الكثير من أفانين الحب.

ابن حزم والسياسة:

سكن ابن حزم هو وآباؤه قرطبة ونالوا فيها جاها عريضا، خاصة أن والده كان عالما ومن وزراء المنصور محمد بن أبي عامر ووزراء ابنه المظفر بعده، كما كان من المدبرين لدولتيهما.

وعندما هاجم البربر قرطبة في مطلع القرن الخامس الهجري توفي والده ولم يبلغ الثامنة عشرة من عمره بعد، عند ذلك أخذ على عاتقه مهمة الدفاع عن الأسرة الأموية (التي كان متعصبا لها) ضد البربر، فغادر قرطبة إلى المرية وصار يعمل على توحيد الصفوف لاستعادة الحكم الأموي، فتنبه له حاكم المرية فسجنه ثم نفاه، توجه بعد ذلك إلى بلنسية حيث التقى بالمرتضي الأموي وحارب في جيشه بغرناطة، لكنه وقع في الأسر ولم

يتمكن من العودة إلى قرطبة إلا في سنة ٤٠٩هـ.

في رمضان سنة ٤١٤هـ تولى الحكم صديقه عبد الرحمن المستظهر فعينه وزيرا، لكن لم يلبث في هذا المنصب إلا شهرا ونصف الشهر فقط، فقد قتل المستظهر وسجن ابن حزم، وبعد العفو عنه أعيد إلى الوزارة ثانية، حيث وزر لهشام المعتد بالله، وبعد زمن يسير نبذ المناصب كلها، فترك الوزارة وهجر السياسة إلى غير رجعة، وأقبل على تعلم ما لم يتعلمه والتصنيف وتقييد الآثار والسنن والعلوم، وأعطى العلم كل ما أوتيه من طاقة، فقد أراد أن يكمل ما تعلمه في نشأته الأولى من علوم وآداب على يد كثير من العلماء الأئمة، ومع ذلك لم تسر حياته سيرا طبيعيا وعاديا، بل تأثرت كثيرا بما مر به من أزمات، وما تعرض له هو وأسرته من متاعب، فقد فرضت عليه الظروف الكثير من الرحلات الإضطرارية والتنقلات الإجبارية بين قرطبة والمرية وبلنسية والشاطبة.

هذا النفي والسجن ضيعا عليه الكثير من مكاسب الآباء، كما حرماه من الإستقرار بموطنه الأصلي، ومع ذلك فإن حالته المادية لم تتأثر بكل ما حصل له، فبقي كل حياته في سعة من العيش الموفور الرزق.

شخصية ابن حزم

تمتع ابن حزم بذاكرة قوية وحافظة مستوعبة وبديهة سريعة حاضرة، كما تمتع بقدرة استدلالية هائلة، ومعرفة واسعة عظيمة، فلم يكن شخصا عاديا في اطلاعه واستيعابه وحفظه، كان وحدة ذكاء شديدة، وشخصية فذة في مقدرته على الفهم والتعليم والتحصيل، وكان متقنا إلى اللغة العربية اللغة اللاتينية، ولم يكن ممن يقنعون برؤية الظواهر، أو يكتفون بملاحظة الوقائع، بل كان دائما يحاول الوقوف على الأسباب والكشف عن عللها، واثقا من أن الطبيعة دائما في اطراد مستمر بين العلل والمعلولات، وإلى جانب كل هذا لم يقنع بترديد آراء غيره، أو مقتصرا على الأخذ عن السابقين، بل كان حريصا على معاودة النظر في المسائل، ومهتما بتفهم كل شيء، ودليل ذلك استقلاله في تفكيره مما قاله هو عن نفسه في مقدمة كتابه (طوق الحمامة): "..... والتزمت في كتابي هذا الوقوف عند حده، والإقتصار على ما رأيت أو صح عندي بنقل الثقات.. وما مذهبي أن أنضي مطية سواي، وأن أتحلى بحلي مستعار..."

هذا الإستقلال الفكري لم يكن مجرد تعبير من رغبته في مخالفة السابقين، أو سعيا وراء الأصالة والتجديد، وإنما كان نتيجة طبيعية لعقليته المتفتحة التي لم تركن إلا إلى أوليات الحسن وبديهيات العقل، وما ارتد إليهما من براهين قاطعة.

إن شخصية ابن حزم لم تكن في أي وقت من الأوقات شخصية عدوانية تميل إلى تأكيد ذاتها تجاه الآخرين، إنما كان يمتاز بوفاء عجيب لأصدقائه، وتمسك شديد بروابط المودة والتآلف، الأمر الذي يدل دلالة قاطعة على نبل أخلاقه وحسن عشرته، وكذلك كان في الحب مثالا رائعا للوفاء بأسمى معانيه، كما كان يتميز بعزة النفس وعلو الهمة والميل إلى الإستقرار والنزاهة.

ابن حزم وفقهاء عصره:

اشتد العداء بين ابن حزم وفقهاء عصره فتآمروا عليه ورموه بالإلحاد والضلال، وطاردوه بدعاياتهم في كل مكان، وشنعوا عليه كثيرا، وهو بدوره لم يقف أمام هذه التصرفات سلبيا، بل شن عليهم حربا لا هوادة لها هوادة فيها، ولم يتحرج في كثير من الأحيان برميهم بنفس التهمة التي رموه بها، والمتأمل في أغلب مؤلفاته الجدلية والفقهية يجدها مليئة بالعبارات النابية والأساليب العنيفة والقاسية في نقده لأقاويل خصومه، وتنفيذ حجج معارضيه، ولعل هذا ما جعل بعض المؤرخين يقولون: "إن لسان ابن حزم وسيف الحجاج كانا شقيقين"، لذلك عاب عليه معاصروه صلابته في الجدل، وعناده في التمسك برأيه، وصرامته في الحكم على آراء مخالفيه، والحقيقة هي أن ابن حزم كان حاد المزاج، عنيف الخصومة، صلب الرأي، لكنه لم يكن يتجنى على خصومه أو يتقول عليهم كما لم يجادلهم بغير علم.

ومهما كان من أمر صلابته وصرامته وحدّة مزاجه، فإنه كان يمتاز بقوة الشكيمة والقدرة العظيمة على التحدي، كما لعبت المقاومة الشديدة التي لقيها من جانب معاصريه على تفتق ذهنه، وذكاء حماسه، وشحذ قلمه، فاستفادت المكتبة العربية والإسلامية الشيء الكثير من مساجلاته العديدة التي دارت بينه وبين خصومه، كما خرج الفكر العربي الأندلسي من هذه المعارك الفكرية بثروة علمية ضخمة لا تقدر بثمن، إنه ابن حزم الذي عرف كيف يحاج مخالفيه ويبذهم بما أوتيه من بلاغة اللسان وبلاغة القلم، وحضور الذهن ووفرة المادة، وشدة الإخلاص والصدق.

هذه الخلافات الفكرية والخصومات التي استهدفت ابن حزم، فسرها المؤرخون وأعادوها إلى عدة أسباب، فقد قال بعضهم إنها تعود إلى مناداته بالمذهب الظاهري في بيئة لم تعرف إلا فقه الإمام مالك، وقال فريق ثان إن تعصبه للأمويين كان السبب المباشر للعداء الشديد الذي لقيه من جانب معاصريه، ويرى فريق آخر أن جهل ابن حزم بسياسة العلم وتطاوله على فقهاء عصره، هو الذي ألّب عليه قلوب الغالبية العظمى من الخاصة والعامة.

إحراق مؤلفات ابن حزم:

إن تبوغ ابن حزم في الأدب والفلسفة، والطب والحديث، والفقه والتاريخ، ولأنه كان أصوليا نظارا، وكاتبا شاعرا، يرتجل الشعر ويبتده الخطب، ويضع الكتب، ولإجماع أهل العلم أنه كان أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام، وأوسعهم معرفة، مع توسعه في علوم اللسان، ووفور خطه من البلاغة والشعر، وتبنيه للمذهب الظاهري ومقارعته للفقهاء الجامدين والمقلدين، ناله الشيء الكثير من المحاربة والتشنيع، ومع ذلك ازداد تمسكا برأيه فضاقوا أكثر من قبل منه، ولما لم يقدروا على إسكاته وثنيه عما هو عليه، استعانوا بحاكم اشبيلية المعتضد بن عباد، فوافقهم على ما ارتأوه فيه، فقام بإحراق كتبه علانية، ولولا أن حاكم المرية حال دون تحاملهم عليه لأودوه حتفه، لكنهم اكتفوا بإحراق بعض كتبه في إحدى ساحات إشبيلية، كما حرّموا النظر فيما كتبه، ولولا أن حمل بعض تلاميذه كتبه إلى الشرق، لما انتشرت في الآفاق، وطال الإنتقام بعض أفراد أسرته، فنأى بنفسه عن الناس وابتعد عنهم، فارتحل إلى قرية صغيرة كانت له في البادية، وبقي فيها لا يختلط بأحد، ولا يناقش إنسانا، إلا بعض تلاميذه الذين كانوا يزورونه بين حين وحين، حتى وفاته سنة ٤٥٦هـ، وهكذا توفي مبعدا عن سكنه مشردا عن وطنه من قبل الدولة.

وعندما أحرق ابن عباد كتبه قال ابن حزم:

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي
تضمنه القرطاس بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركائبي
وينزل إن أنزل ويدفن في قبري
دعوني من إحراق رقّ وكاغد
وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري
وإلا فعودوا في المكاتب بدأة
فكم دون ما تبغون لله من سرّ

وقال:

لا يشمتنْ حاسدي إن نكبة عرضت
فالدهر ليس على حال بمتّرك
ذو الفضل كالتبر طورا تحت ميْقعة
وتارة في ذرى تاج على ملك

وكان مما عده عليه حساده ومبغضوه أنه كانت له مجالس مع أولي المذاهب المرفوضة من أهل الإسلام، أي أنه كان يجتمع إلى غير السواد الأعظم، كما عابوا عليه أنه خالف أرسطو في بعض آرائه، وكأن الإجتماع بالمخالف ونقد صاحب الرأي كفر وزندقة، كما حاربوه في اجتماعه بأهل العلم من باقي الأديان الأخرى غير الإسلام، هذا غير تعصبه لبني أمية وللمذهب الظاهري وفي ذلك يقول:

قالوا تحفظ فإن الناس قد كثرت
أقوالهم وأقاويل الورى محن
فقلت هل عيبهم لي غير أني لا
أقول بالرأي إذ في رأيهم فتن
وأنني مولع بالنص لست إلى
سواه أنحو ولا في نصره أهن
لا أنثني لمقاييس أقول بها
في الدين بل حسبي القرآن والسنن
يا برد ذا القول في قلبي وفي كبدي
ويا سروري به لو أنهم فطنوا
دعهم يعضوا على صُمّ الحصى كمداً
من مات من قوله عندي له كفن

من أخبار ابن حزم:

قال ابن حزم: "غاظني أهل الجهل مرتين من عمري، إحداهما بكلامهم فيما لا يحسنونه أيام جهلي، والثانية بسكوتهم على الكلام بحضرتي، فهم أبداً ساكتون عما ينفعهم ناطقون فيما يضرهم، وسرّني أهل العلم مرتين من عمري، إحداهما بتعليمي أيام جهلي، والثانية بمذاكرتي أيامِ علمي".

وقال: "إني لأجفى فأحتمل وأستعمل الأناة الطويلة والتلوّم الذي لا يكاد يطيقه أحد، فإذا أفرط الأمر وحميت نفسي تصبرت وفي القلب ما فيه"

ذكر ياقوت وغيره أن ابن حزم اجتمع يوماً مع الفقيه أبي الوليد سليمان بن خلف الباجي صاحب كتابي المنتقى والإستغناء وغيرهما من التآليف، وجرت بينهما مناظرة، فلما انقضت قال الفقيه أبو الوليد: "تعذرني فإن أكثر مطالعتي كانت على سرج الحراس"

فقال ابن حزم: "وتعذرني أيضاً فإن أكثر مطالعتي كانت على منابر الذهب والفضة" أراد أن الغنى أضيع لطلب العلم من الفقر.

ذكر المقري في نفح الطيب.. وصله من ابن عمه أبي المغيرة رسالة فيها ما أوجب أن جاوبه بهذه الرسالة، وهي: (سمعت وأطعت لقول الله تعالى (وأعرض عن الجاهلين) وأسلمت وأنقدت لقول نبيه (صل من قطعك واعف عمن ظلمك) ورضيت بقول الحكماء (كفاك انتصاراً فمن تعرض لأذاك إعراضك عنه) وأقول:

تتبَّع سِوايَ امرأً يبتغي
سِبابكَ إنَّ هواك السِّبابُ
فإني أبَيْتُ طِلابَ السفاه
وصنتُ مُحلِّيَ عما يُعابُ
وقل ما بدا لك من بعد ذا
وأكثر فإن سكوتي خطابُ

وأقول:

كفاني بذكر الناس لي ومآثري
ومالك فيهم يا ابن عمي ذاكرُ
عدوي وأشياعي كذاك من
غدا وهو نفَّاع المساعي وضائرُ
وإني وإن آذيتني وعققتني
لمحتمل ما جاءني منك صابرُ

فوقع له أبو المغيرة على ظهر رقعته: قرأت هذه الرقعة العاقة، فحين استوعبتها أنشدتني:

نَحْنَحَ زيدٌ وسعل
لما رأى وقْعَ الأسل

فأردت قطعها، وترك المراجعة عنها، فقالت لي نفسي: قد عرفت مكانها، بالله لا قطعتها إلا يده، فأثبتُ على ظهرها ما يكون سببا إلى صونها، فقلت:

نعقت ولم تدر كيف الجواب
وأخطأت حتى أتاك الصواب

إلى آخر الأبيات (وهي مدونة في نفح الطيب للمقري).

نموذج من شعره:

عرف عن ابن حزم ولوعه في الأدب والشعر، وله ديوان، كما بث في كتبه العديدة كثيرا من شعره، ومن أشعاره قوله مخاطبا قاضي الجماعة بقرطبة عبد الرحمن بن بشر:

أنا الشمس في جوّ العلوم منيرةً
ولكنَّ عيبي مَطلعي الغربُ
ولو أنّني من جانب الشرقِ طالعٌ
لجدَّ على ما ضاع من ذكريَ النهبُ
ولي نحو آفاق العراق صبابةٌ
ولا غرو أن يستوحش الكلِفُ الصَبُّ
فإن يُغزلُ الرحمنُ رحلي بينهم
فحينئذ يبدو التأسفُ والكربُ
فكم قائلٍ أغفلتهُ وهو حاضرٌ
وأطلب ما عنه تجيء به الكتبُ
هنالك يدري أن للعبدِ قصةً
وأن كسادَ العلم آفته القربُ
فيا عجباً من غاب عنهم تشوّقوا
له، ودُنوُّا المرء من دارهم ذنبُ
وإنَّ مكاناً ضاق غير لضّيقٌ
على أنه فيحٌ مَهامِهُه سُهْبُ
وإن رجالا ضيعوني لَضُيَّعٌ
وإن زمانا لم أنل خصْبه جَدْبُ

ومن شعره أيضاً قوله:

أنا العلْقُ الذي لا عيبَ فيه
سوى بلدي، وأني غيرُ طاري
تقر لي العراقُ ومن يليها
وأهل الأرض إلا أهل داري
طووا حسَداً على أدب وفهمٍ
وعلمٍ ما يُشقُّ له غُباري
فمهما طارَ في الآفاق ذكري
فما سطعَ الدخانُ بغيرِ نارِ

قال ياقوت في معجمه للأدباء أن صاحب المطمح أورد له أشعاراً منها قوله:

هل الدهرُ إلا ما عرفنا وأدركنا
فجائعهُ تبقى ولذَّاتهُ تفنى
إذا أمكنَت فيه مسَّرةُ ساعة
تولَّت كمرِّ الطَّرْف واستخلفت حُزنا
إلى تبعات في المعَاد وموقف
نَودُّ لديه أننا لم نكن كُنَّا
حصلنا على هَمّ وإثم وحسرة
وفات الذي كُنَّا نَلَذُّ به مِنَّا
حنينٌ لما ولَّى وشغلٌ بما أتى
وغَمٌّ لما يُرجى بعيشكَ لا تهنا
كأنَّ الذي كُنَّا نُسَرُّ بكونه
إذا حققته النفسُ لفظٌ بلا معنى

وأورد له ابن بسام في الذخيرة كثيرا من شعره، ومنه قوله في الإعتذار من مدح نفسه:

ولكن لي في يوسف خيرَ أُسوة
وليس على من بالنبي ائتسى ذنبُ
يقول – وقال الحق والصدق – إنني
حفيظٌ عليم، ما على صادق عتب

وقال:

لئن أصبحتُ مُرتحلا بشخصي
فروحي عندكم أبداً مقيمْ
ولكن للعيان لطيف معنى
له سأل المعاينة الكليمْ

علومه ومؤلفاته:

يعد علي بن حزم من أنشط المفكرين المسلمين على وجه العموم، والأندلسيين على

وجه الخصوص، فقد كتب في كل فرع من فروع الثقافة، وترك الكثير من المؤلفات في كل لون من ألوان المعرفة، وقد أجمع المؤرخون على أنه كان أكثر علماء الأندلس تأليفا وأغزرهم تصنيفا، وقد قال يا قوت الحموي في معجم الأدباء، لقد أخبرني ابنه أبو رافع الفضل أن مبلغ تواليفه في الفقه والحديث والأصول والنحل والملل وغير ذلك من التاريخ والنسب وكتب الأدب والرد على المعارض نحو أربعمئة مجلد تشتمل على قريب من ثمانيين ألف ورقة، وقال: "هذا شيء ما علمناه لأحد ممن كان في دولة الإسلام قبله إلا لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، فإنه أكثر أهل الإسلام تصنيفا.

وذلك لأنه بعدما نبذ السياسة واعتزل الوزارة أقبل بكليته على العلم والتصنيف، وانكب علي تقييد الآثار والسنن، فعني بعلم المنطق وألف فيه كتابا سماه (التقريب لحدود المنطق والمدخل إليه) بسَّط فيه القول علي تبيين طرق المعارف، واستعمل فيه مُثلا فقهية وجوامع شرعية، وخالف أرسطا طاليس واضع هذا العلم في بعض أصوله، وقال عنه رجاء عبد المتجلي (هو مختصر مبسط للمنطق الأرسطي، استخدم فيه ألفاظا عامية وأمثلة فقهية، أراد من ذلك محاولة تعليمية جديدة لتقريب المنطق إلى أذهان غير المتخصصين من القراء).

كما صنف ابن حزم في علوم الشريعة والفقه ما لم يصنفه أحد قبله في الأندلس، جاء معظمها في أصول الفقه وفروعه على مذهبه ومسلكه، وهو مذهب دواود بن علي الأصبهاني الظاهري، ومن قال بقوله من أهل الظاهر ونفاة القياس والقليل، وهذه المصنفات تمثل الجانب الأكبر من إنتاجه، وكان من أهمها كتاب (المحل بالآثار في شرح المجلى بالاختصار) وقد طبع في أحد عشر جزءا.

ومن مؤلفاته قسم يعد دراسات مهمة في التاريخ والسياسة، أهمها رسالة (نقط العروس في تواريخ الخلفاء) ولهذه الرسالة أهمية تاريخية كبرى، فهي مرجع مهم لكل من يريد دراسة نظام الخلافة الإسلامية، كما أنها تحتوي على كثير من الأخبار الشخصية والسياسية عن الخلفاء حتى عصر ابن حزم.

كذلك اعتنى ابن حزم بالدراسات الخلقية والنفسية، فكتابه طوق الحمامة في الألفة والألاف وكتابه مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق يؤكدان أن ابن حزم كان ملما بالكثير من النظريات في علم النفس والأخلاق، كما أنه اعتمد في ذلك على خبرته، فجاءت دراساته النفسية والخلقية دراسات تحليلية عميقة، نبعت من صميم خبراته الحياتية، وصدرت عن حكمة عملية طويلة الأمد، كذلك استند في دراساته هذه على الأصول الدينية، فحاول تأييد أحكام العقل ببعض النصوص الدينية، وعمد إلى تزكية القضايا العقلية والتجريبية ببعض القصص من القرآن الكريم.

والدارس لحياة ومؤلفات ابن حزم يجده أنه قدم دراسات أدبية مهمة، فقد ترك في هذا المجال ديوان شعر، وأبيات من الشعر الكثيرة التي أثبتها في كثير من مؤلفاته، ويمتاز شعره بأنه يصف للناس خبراته بدون تكلف أو افتعال، كما ينقل إليهم عواطفه وأحاسيسه دون مبالغة أو إغراق في الخيال.

وقد أجمع دارسوه أن كل نتاجه الأدبي والعلمي اتصف بالدقة والتنظيم ومراعاة مقتضى الحال، وبالرغم من أنه كان غزير التأليف لم يجد بين كل مؤلفاته كتاب واحد لم يبدأه بتجديد موضوع بحثه، وتعيين خطته في الدراسة، والنص على الهدف الذي قصد إليه من وراء تأليفه، لأنه لم يكن يكتب لمجرد الكتابة، أو للتباهي بعلمه، أو ليقال عنه أنه كتب المئات من الكتب والرسائل، إنما كان يكتب مبتغيا بذلك وجه الله عز وجل، قاصدا من وراء كتاباته تحقيق أكبر نفع ممكن لطلاب العلم والمعرفة.

وكثرت مؤلفاته لتمكنه من العلوم، فقد كان مليئا بالعلم فهو لا يحتاج إلا إلى سؤال حتى يتفجر منه بحر علم لا تكدره الدلاء ولا يقصر عنه الرشاء، وكان له على كل مسألة دلائل ماثلة وأخبار مأثورة.

وجاء كتابه (الفصل في الملل والأهواء والنحل) عبارة عن تاريخ انتقادي للمذاهب البشرية، كما ضمنه أبحاثا فلسفية في أصل العالم على رأي الطبيعيين، ومذاهب الأديان المعروفة في أيامه من مسيحيين ويهود

وصابئة وسامريين، ويؤكد أيضاً نظره في التوراة والإنجيل وقد أفاض في ذلك، كما ذكر فيه الفرق الإسلامية ومذاهبها وآرائها ونقدها، وبحث في القرآن وإعجازه وفي القدر والتعديل، والأنبياء وفي يوم القيامة، وتوسع في الخوارج والمعتزلة والمرجئة، وفي كتابه هذا فصول في فلسفة الوجود والطبيعيات في ذلك العهد.

ومن مؤلفاته التي بلغت وقر بعير:

١- الصادع والرادع على من كفر أهل التأويل من فرق المسلمين والرد على من قال بالتقليد.

٢- شرح حديث الموطأ والكلام على مسائله.

٣- التلخيص والتخليص في المسائل النظرية وفروعها التي لا نص عليها في الكتاب ولا الحديث.

٤- منتقى الإجماع وبيانه من حملة ما لا يعرف فيه اختلاف.

٥- الإمامة والسياسة في قسم سير الخلفاء ومراتبها والندب والواجب منها.

٦- أخلاق النفس.

٧- الإيصال إلى فهم كتاب الخصال ٢٥ مجلد.

٨- كشف الإلتباس ما بين أصحاب الظاهر وأصحاب القياس.

٩- كتاب في أسماء الله تعالى، ذكر المقري أن الغزالي قد قرأه ومدحه.

١٠- الفصل في الملل والأهواء والنحل، في العقائد وقد طبع في خمسة أجزاء.

١١- المحلى بالآثار في شرح المجلى بالإختصار في الفقه وقد طبع في أحد عشر جزءا.

١٢- الناسخ والمنسوخ، طبع على هامش تفسير الجلاليين.

١٣- جمهرة الأنساب، طبع.

١٤- حجة الوداع، طبع ولكنه غير كامل.

١٥- ديوان شعر مازال مخطوطاً.

١٦- جوامع السيرة، طبع ومعه خمس رسائل لـه.

١٧- التقريب لحدود المنطق والمدخل إليه، وهو مطبوع.

١٨- مراتب العلوم، رسالة مخطوطة، موجودة في الرباط برقم ٢٠٩ ق، وهي مطبوعة في جملة رسائل لـه، وقد حققها د. إحسان عباس وطبعها بمصر.

١٩- الإعراب، مخطوط في ٢١٤ ورقة موجود في مكتبة شستربيتي بدبلن برقم ٣٤٨٢.

٢٠- ملخص إبطال القياس، طبع بتحقيق سعيد الأفغاني.

٢١- أمهات الخلفاء. مطبوع.

٢٢- رسائل ابن حزم. مطبوع.

٢٣- الإحكام لأصول الأحكام. مطبوع في ثماني مجلدات.

٢٤- إبطال القياس والرأي واستحسان التقليد والتعليل، مخطوط منه نسخة في مكتبة غوطا كما ذكر الزركلي.

٢٥- المفاضلة بين الصحابة، مطبوع.

٢٦- مداواة النفوس، وهو رسالة في الأخلاق. طبعت.

٢٧- طوق الحمامة في الألفة والألاف، في الأدب. طبع لأول مرة في لندن.

٢٨- فضائل الأندلس وذكر رجالها، مطبوع وقد ذكرها المقري في نفح الطيب، وقد ألفها ردا على رسالة أبي علي بن الربيب القيرواني عندما ذكر فيها تقصير أهل الأندلس في تخليد أخبار علمائهم ومآثر فضلائهم وسير ملوكهم.

٢٩- كتاب في الشعراء، نقل عنه الحميدي كثيراً، وهو مفقود ويدل على اهتمامه بالنقد.

٣٠- الفصاحة والبلاغة، ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء.

٣١- تسمية الشعراء الوافدين على ابن أبي عامر، ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء.

٣٢- كتاب في العروض. مفقود ذكره الذهبي.

٣٣- كتاب في الضاء والضاد. مفقود ذكره الذهبي.

٣٤- التعقب على ابن الإفليلي في شرحه لديوان المتنبي، مفقود، وذكره الذهبي.

قالوا في ابن حزم:

قال المقري في نفح الطيب: "كان ابن حزم صاحب حديث وفقه وجدل، وله كتب كثيرة في الجدل والفلسفة والفقه والأدب، شنع على الفقهاء فطعنوا فيه، حتى أقصاه الملوك وأبعدوه عن موطنه."

وقال صاعد في تاريخه: "كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام، وأوسعهم معرفة، مع توسعه في علم اللسان والبلاغة والشعر والسير والأخبار."

وقال عنه الحافظ الذهبي: "ابن حزم علاّمة صاحب مصنفات، كان إليه المنتهى في الذكاء وحدّة الذهن وسعة العلم بالكتاب والسنة والمذاهب والملل والنحل، والعربية والآداب والمنطق والشعر، مع الصدق والديانة والحشمة والسؤدد والرياسة والثروة وكثرة الكتب."

أما حجة الإسلام أبي حامد الغزالي فقد قال عنه: "وجدت في أسماء الله تعالى كتاباً لأبي محمد بن حزم يدل على عظم وسيلان ذهنه"

أما ابن سعيد فقد أثبت المقري قوله: "الوزير العالم الحافظ أبو محمد علي ابن الوزير أبي عمر أحمد بن سعيد بنِ حزم... شهرته تغني عن وصفه، توفي منفيا بقرية من بلد لبلة"

وقال ابن بسام في الذخيرة: " كان ابن حزم يحمل علمه ويجادل من خالفه فيه، على استرسال في طباعه... وكان يصك به معارضه صك الجندل، وينشقه متلقيه إنشاق الخردل، فينفر عنه القلوب، ويوقع بها الندوب، حتى استهدف فقهاء وقته، فتمالأوا على بعضه وردوا قوله، وأجمعوا على تضليله، وشغلوا عليه، وحذروا سلاطينهم من فتنته، ونهوا عوامهم عن الدنو إليه والأخذ عنه، فطفق الملوك يقصونه من قربهم، ويسيرونه عن بلادهم".

وقال عنه الزركلي: "عالم الأندلس في عصره، وأحد أئمة الإسلام، كان في الأندلس خلق كثيرون ينتسبون إلى مذهبه، يقال لهم (الحزمية).

وأخيراً هذه إطلالة سريعة على حياة رجل زهد في السياسة وفي أعلى المناصب، واختار الإعتكاف على العلم وللعلم فقدم الشيء الكثير، ونال ما ناله جراء مواقفه الجريئة، إنه ابن حزمٍ الأندلسي الذي إذا أردنا أن نقرأ نمطا عجيبا من رده على مخالفيه وكيف زيف أقوالهم قرأنا الفصل في الملل والأهواء والنحل، وإذا شئنا أن نطلع على حكم اختلف فيه الناس من أصول الأحكام وجدناه في كتابه الجامع الإحكام في أصول الأحكام، وإذا سمت بنا الهمة للتبحر في الحجاج ومعرفة الإختلاف، وتصحيح الدلائل إلى معرفة الحق مما تنازع الناس فيه، والإشراف على أحكام القرآن، والوقوف على جمهرة السنن الثابتة فنتصفح كتابه المحلى، وإذا جنحنا إلى معرفة حكمة العشق، وإلى تحليل أرواح النساء والرجال وكشف أسرار الجنسين بحرية من القول والفكر فلنقرأ كتابه طوق الحمامة، وإذا عزمت أنفسنا على قراءة فلسفته في الأخلاق وما يصلح الجماعات والمجتمعات فلنقرأ كتابه مداواة النفوس فهو كتاب كله زبدة، يجزئ قارئه عن كثير مما كتب في موضوعه.

هذه بعض كتبه التي تخطتها حملات خصومه فسلمت.

إنه ابن حزم الذي كتب في الشريعة وكأن مسائل الدين صفحة واحدة ماثلة أمام عينيه استظهرها في صغره، واستخرج أيام نضج عقله وعلمه وكل ما فيها من دقائق الحقائق، فكان بذلك حقاً من أعظم علماء الإسلام لم يجيء في بابه بضعة رجال من عياره.

إنه ابن حزم الإمام في كل شأن، في الدين والحكمة والأخلاق والأدب والتاريخ، وفي كل ما أتقن من علم وتمثله وألف فيه، إن من يغوص فيما كتبه أو حاوره أو جادل يعظمه بسلطان علمه، ويعجب بشدة غيرته على بث فكره.



حان الوداع

شعر : غادة فطوم

على مفرق الأيام التقينا ..
تحادثنا..تهامسنا..سافرنا..
سبق العمر عمري بات نسغك
في دمي يسري..
على حلم الفراشات رسمنا قصتنا
قفزت لآلئ الروح تغار من لقاء
الكف بالكف ...
تشابكت أوردة العمر الأبدي
توحدت أصابع الزمن
ارحلي من طريقنا أيتها الساعات
واتركي لنا كل مسافات
لم تشرق بيننا بعد..
واضفري العمر والزمن
فلقاؤنا بات مستحيلا
أرسلينا إلى شواطئ أمكنة
لاتصل إليه نبضات الوقت
حان الوداع
كلما حان كنا
عاشقين تمتدّ بنا رياح الشوق
عاشقين في رحلةٍ تمد أوصال الهوى
محلقة في بحار شوق ساكنة








حان الوداع
حان الوداع ..
وبازدحام الوداع
هتفت دموع اللقاء
تلد شمس حنين مستمر
هي .. هي ..
أحلامي سرقت مني اللقاء
والوداع..
وأسرت في أحلامك مرسلة
أوراقا ملونة بألوان الشفق ..
وحان الوداع
تركت ظلي مرميا على ظله
وعلى عناق الظل بالظل
فرت أوراقي..
تشابكت أغصان الهوى في
عناق طويل ..طويل
وعلى إغفاءة الحرير
نادانا حارس الوقت ملوحا بالوداع
وعندما.
حان الوداع تشابكت أصابعنا
وسقط
سقط الوداع على الرصيف قتيلا
قتيلا قتيلا
فما...أروع اللقاء ..
ما أروع اللقاء..




ابن رشد فيلسوف الأندلس

بقلم:
خالد بدور

هو القاضي أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد، ولد في قرطبة عام ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م، من أسرة كبيرة مشهورة بالفضل والرياسة، وقد كان أبوه قاضياً، وكان جده قاضي القضاة في قرطبة، درس ابن رشد الفقه والكلام والطب والرياضيات والفلسفة، وقد تولى القضاء عدة سنوات في إشبيلية ثم في قرطبة، وقد قيل أنه كان بادئ الأمر مكيناً عند الخليفة المنصور، وجيهاً في دولته.

ولما كان المنصور في قرطبة وهو متوجهاً إلى غزو الفونسو ملك قشتاله استدعى إليه الفيلسوف ابن رشد، وقربه إليه. ولكن سرعان ما تغيرت الحال حيث سعى فيه الحسّاد ووشى به الجُهَّال عند الخليفة، وهمس المتعالمون بأن ابن رشد كثير الاشتغال بالفلسفة وعلوم اليونان، وبناء على ذلك فقد نقم عليه المنصور إرضاءً للعامة، وأمر بإبعاده إلى (أليسانه) يقيم فيها ولا يخرج منها، وبقي ابن رشد مغضوباً عليه إلى أن تولى الأعيان الشهادة له عند السلطان فرضي عنه.

ومضت الأيام وتنكر الناس لابن رشد، فَنُفيَ إلى بلاد المغرب ونُكِّل به وأُحْرقت كتبه، وتوفي في مراكش عام ٥٩٢هـ/ ١١٩٨م.

وبموت ابن رشد تفرق تلاميذه ومُريدوه، وأصدر المنصور منشوراً بتحريم الاشتغال بالفلسفة.

عاش ابن رشد في الأندلس في بيئة من تلك البيئات المظلمة التي تحدث عنها المقري في (نفح الطيب) حيث قال: "وكل العلوم لها عندهم (أي عند أهل الأندلس) حظ واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم" فإن لهما حظاً عظيماً عند خواصهم، ولا يتظاهرون بها خوف العامة فإنه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم أطلقت عليه العامة اسم زنديق، وقيدت عليه أنفاسه، وإن زل في شبهة رجموه بالحجارة،

أو أحرقوه قبل أن يصل أمره إلى السلطان، أو يقتله السلطان تقربا إلى العامة.

وكثيراً ما يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وجدت، وبذلك تقرب المنصور بن أبي عامر لقلوبهم أول نهوضه، وإن كان غير خال من الاشتغال بذلك في الباطن، وقد حاول ابن رشد أن يلقى في بيئة الأندلس هذه أقباساً من نور الفلسفة، ولكنه اصطدم بصخرة الجهل والتقليد والتعصب الذميم.

كان ابن رشد من أكبر علماء الإسلام ومن أخصب الكتّاب في اللغة العربية.. كتبَ في الفقه والأصول واللغة والطب والفلسفة والفلك، وصنَّفَ وقيَّد وألَّفَ نحو عشرة آلاف ورقة، ولما كان ابن رشد شديد الإعجاب والإجلال لأرسطو، فقد نهض للعناية بالفلسفة الأرسطاطالية وإيضاحها، ووقف حياته على كتابة الشروح والجوامع تفسيراً لأقوال (المعلم الأول).

ومن أهم كتبه ابن رشد كتابه (تهافت التهافت) الذي كتب ردّاً على كتاب الغزالي (تهافت الفلاسفة)، ولابن رشد كتابان مشهوران هما (الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملّة) و (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال).

النزاع بين ابن رشد والغزالي

كان مقصد الغزالي في كتابه (تهافت الفلاسفة) أن يُبْطل آراء الفلاسفة في الإلهيات ويُزعزع ثقة الناس بهم، وكان يرمي آخر الأمر إلى أن يُثَبِّت قصور العقل الإنساني عن أن يعرف الحقيقة في الأمور الإلهية وأن يبين أن الوصول إلى الحق لا يكون بالحجج العقلية والاستدلالات الفلسفية.

ولكن بالكشف الإلهامي وبنور يقذفه الله في القلب، وكان لهذا الموقف العدائي للفلسفة أثره في رُكود ريحها في العالم الإسلامي إلى أن قام ابن رشد ليُبيّن في كتابه (تهافت التهافت) ما في آراء الغزالي من سفسطة تقوم على الأقاويل الجدلية والخطابية.

وتناول ابن رشد المسائل التي هي محل النزاع بين الفلاسفة والمتكلمين وبسّط القول فيها، مبيناً أن آراء الفلاسفة لا تخالف الشرع إلاّ ظاهراً، وأنهم من أجل ذلك لا يستحقون أن يُرموا بما رَماهُم به الغزالي ظُلماً وعُدوانا.

التجني على ابن رشد

أُوذي ابن رشد، وكثر التجني عليه بعد وفاته من جانب المسلمين وعلماء الدين من المسيحيين من أهل عصره، فكان ابن رشد في نظر أولئك وهؤلاء كبير الزنادقة والمضللين وزعيم العقليين والمتشككين في الدين.

ولهذا لا نستطيع أن نأخذ ما ذكره المسلمون عن ابن رشد إلاّ مع الاحتياط والحذر الشديد، وقد لاحظ الأستاذ محمد عبده أن ما سيطر على المسلمين من جهل وجمود في تلك الفترة أدى إلى إثارة الفتن وروح التعصّب وسَهّل على كل واحد أن يرمي الآخر لأدنى شُبهة بالكفر والزندقة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى نرى أن ما نقله الغربيون عن ابن رشد لا يمكن أن يعطينا فكرة صحيحة عن مذهب ذلك الفيلسوف، فقد تناقلوا عنه أقاويل كثيرة مكذوبة، وصوروه في صورة المتحامل على المسيحية، كما هوجمَتْ فلسفة ابن رشد مُهاجمةً عنيفة من جانب اللاهوتيين الذين صوروها على نمط يُلائم أهواءهم وغاياتهم.

"قراءة أدبية"

أبجدية طلعت..

نقش على جدران العمر
حنين لفلسطين
وشوق للحبيبة
وبوح وجداني هادر

بقلم:
عبد الكريم السعدي

في هذه المجموعة أطلق طلعت سقيرق صرخة مدويةً في ديوانه "نقوش على جدران العمر" وكأنه يستجمع كل قدراته وإبداعاته دفعةً واحدة لتؤدي الغرض أمام كل الفضاء الأدبي والشعري، خاصة وهو يرسم على غلاف ديوانه هذا، لوحة مختلفة، كذلك ليكون المشهد منسجماً معاً، في كل جزئياته وأبعاده، والاختلاف في هذا الأمر والمشهد شيء اعتاده طلعت سقيرق في العديد من إبداعاته وإصداراته ليرسم على مساحة الأفق أهداب روحه المعطرة بقصائده المفعمة بالعشق والنارنج والياسمين والنرجسْ فقد عشته طويلاً وقرأته زمناً.

فالشاعر مسكون بحبه وخلاياه تتنفس من رحيق عواطفه وتطلعاته. وجمله الشعرية تقول دائماً:

ها أنا أحلق في كل حال نحو السحاب فلا تنظروا إلى الأرض فقط، فالسماء عالم التطلع ولوحات الشعراء والمبدعين، ولأنني أدرك أن طلعت سقيرق قلق دائماً يبحث عن شيء مهم ومختلف فقد عرفته واحدا من أولئك الذين ينشدون الإبداع في كل حالاته كما يحب أن يضع بصمته لا على هامش الحياة بل على طلعتها ومبسمها، ولئن فعل ذلك، فهو يغرد كالعصفور، والبلبل لا ليسعد نفسه ويمتعها بل ليبهج من حوله في فضائه الكوني شأن الطير في روضة الجمال، فهو جزء منها يُكمّلها كما تكمّله ويسعدها كما تسعده، فالقلق عند

الشاعر، هو إحساس بجمالية الأشياء، وإعادة صياغتها بقصائده الملونة، وهذه المرة خاصة بلون البنفسج الخفيف، كما يقول غلاف الديوان، فقد حوت حديقته الشعرية معظم ألوان الزهور وباقاتها المرونقة، قرأت لوحة غلاف ديوانه الذي أهدانيه مؤخراً أكثر من التأمل فيه فوجدتني أسبح في كتابته المبهجة لأستشف، أنه يشي بالأصالة والعراقة والتاريخ الأبجدي للإنسان الفلسطيني الذي بنى الحضارة في عالم سحري زمناً طويلاً، وأنجب أجيالاً خلاقة مبدعة، أبدعت فيما بعد فلسطين والعالم الأخر الذي جعلها مطمعاً مستساغاً لنهم الغرب ومحط أنظار الصهيونية العالمية فكانت فلسطين الذبيحة، وكنا داخل أسياجها وخارجه وتجزأ الشعب ما بين عرب الداخل وعرب الضفة والقطاع وعرب الشتات في كل أصقاع العالم.

تلك هي اللوحة التي وضعها شاعرنا طلعت على غلافه منذ البداية لتفتح صفحة التاريخ مباشرة على الهم الفلسطيني والجرح الغائر الذي ينزف دما وفي هذا يقول، منذ البداية في قصيدته "سنة مضت":

أفتح.. في فمي طعم الحكايات التي
لا تنتهي
تتلفت العينان
أغمض.. حقل ألحان يظلِّلُ أضلعي
ويفتح الورد.. انتباه الأمكنة

إلى أن يقول:

خطوات من مرّوا.. ومن أحببت
من أدمنت
تَمْتَدُّ الشبابيك.. الوجوه
من أدمنت؟!
أعطيهم إذا شاؤوا دمي

تلك هي الحكاية.. شاعر صفق بجناحيه للوطن وللحبيبة وللجمال وللطبيعة ولِّلحن وللفضاء فغنى بتغريده ألحان نزيف الوطن وأمسيات اشتهاء رائحة الليمون والبرتقال والبيارات الساحلية المزنرة بسياج الحنين وشقائق النعمان "الحنون" والبرقوق وخطوات الطبيعة التي ترسمها أيادي الصبح الندي على غراس الفجر واحمرار الأفق وفي هذا يقول:

سأمضي إلى بعض روحي قليلاً
ونهر حزين
هنا نهدة البرتقال مساءً
هنا صرخة الأمنيات بكاءً
سَتَفْهَمُ أني إذاً عائد من دمي
وتفهم أني إذاً هارب من فمي

حقاً ينزف جرح طلق فيقوله شعراً، ويتأوه حرقة لحضن الوطن فيناديه دفقاً من روحه وعزفاً من وجدانه.

والآن سأدلف إلى ديوانه لأجد فيه "نقوش على جدران العمر" وحكاية قصائد مشرعة بدأت بفضاء، ثم نقوش لربيع يأتي فالإهداءُ، ثم عيدٌ بعيدٍ وفيه يقول:

"يا أم يقتلني الأنينُ"
وفي فمي طعم الصديد
هذا زمان شائك
يقتات من لحمي
ومن عظمي
ومن عمري
تطاردني ابتساماتٌ
فأرسم ظل أفراحٍ..

هكذا هو طلعت سقيرق في حيرةٍ دائمة وقلق وحنين وتوجع وأنين لا يستقر له حال، يبكي وطنه، ويجد نفسه بعيداً عنه، فيعكس هذا الحس، بالألم والمرارة الدائمين رغم أنه يعيش ظروفاً جيدة حياتياً ووظيفياً ولكنه الحنين إلى الوطن وبوح الوجدان بما يحمله هذا البوح، فهو يقول:

ماذا أقول وليس لي إلا النشيد!!
حلقي تيبّسَ
قد ذُبحت من الوريد
إلى الوريدْ
عيد بعيد

فالعيد بعيداً عن الوطن هو الحسرة والجرح النازف دائماً، وكيف تكون السعادة مادام الفلسطيني مشرداً ولازال خارج حدود البلاد وإن كان بين إخوته من العرب وأحبائه من المتعاطفين معه والواقفين إلى جانبه في كل مُلمَّاته وعجز الواقع وطغيان الظلم الآتي من المستعمر والغاصب.

وهكذا سار الديوان، تتتابع فيه القصائد مفعمة بطعم الوجد، فهي سنة مضت، ولنا جدنا، وصديقتي، وقهوة الوجد، وتسكنين الآن صوتي، وصرت في الخميس، ريش الظلام، وانتظار، وتدرين أن البحر لي، شكراً لحبك، جئتك وسقى حقل العمر، وقمر ينام على أريكة عشقه، ومجنونة كل الحروف وأضلعي، البريد الإلكتروني نقوش كنعانية، إهداء، قيثارة الوجد، نقوش وامضة، إهداء، عمري، أغنية، صرخة، مصادرة، تاج الغرام، تعب، الحياة، عَار أنا، المحبة، نبض الكلام، نداء، ضياع، دائرة، كأن خطاي عشق، حدود التمني، صعب.

كما أن للشاعر مساهمات متنوعة في الشعر وفي القصة وفي الرواية والبيبلوغرافيا وفي النقد ثم في النصوص، فالرحلة الأدبية والثقافية حافلة بالإنتاج والكتب والإصدارات فهو يعزف على أكثر من لحن أدبي ولون ثقافي، وقد حدد هويته في هذا، فالشاعر يمكن أن يكون شاعراً وأديباً وناقداً في آن معا وطالما أن فلسطين المغتصبة لازالت مغتصبة وبعيدة، فالفلسطيني قد تتفجر فيه وعنده شتى

كوامن الإبداع للتعبير عن حبه لها والدفاع عنها والسعي لتحريرها بالقلم كما هو الحال بالسلاح.

كذلك فالديوان اختلف من حيث تبويبه داخلياً كما اختلف من حيث الغلاف الخارجي فالشاعر يحب هذا، ويسعى للتفرد به، حيث سار في ديوانه منذ القصيدة الأولى "فضاء" وحتى القصيدة الثانية عشرة وهي "انتظار" على شعر التفعيلة الحداثية في نفس النهج والنفس الشعري.

ثم وضع فاصلاً وهو القصيدة التالية "تدرين أن البحر لي" وهي على نظام الخليل العمودي للبحر وبطابع الجدة في الصور الشعرية وببحر خفيف رشيق متناغم ثم عاد في النسق الشعري الأول وهو شعر التفعيلة إلى ما بدأ بقصائد أخرى وهي من "شكراً لحبك" و"خمس قصائد" و"جئتك أسقى حقل العمر" إلى "البريد الالكتروني"

ثم في التنويع الرابع إلى قصيدة مدورة هي "نقوش كنعانية" ففيها الإهداء وفيها قيثارة الوجد ثم تابع في الفصل الخامس من الديوان رحلته الأولى أيضاً وعاد إلى شعر التفعيلة ليختم به ذلك العمل الذي أهداه في كل فصل منه إلى جهة من أهله ومقربيه وقد طعَّمَ الجزء الأخير بالتفعيلة والنص العمودي للبحر فهو يقول في ذلك "نبض الكلام":

إذا قلت شعراً يحن الكلام
وينبض داخل حرفي الهيامْ
أفتح في كل نقطة حبر يماما
يميلُ إليه اليمامْ
تصير القصائد جنة عشق
ويمتدُّ من كل حسن سلامْ

إذاً تلك القضية في شعر طلعت، تنامي في صيرورة الانفعالات حتى تبلغ الذروة فيتدفق الشعر على سجيته دون توقف معبراً عن حس داخلي جواني هادر بجمل مفعمة بالصور الشعرية والأوزان التي تتلون حسب الدفق الشعري أيضاً وبلغة شفافة وعبارات غنية بالحنين والعشق والمحبة والوجد للأهل والوطن والمحبين.

وفي هذا يقول في "حدود التمني":

أحبك فوق الذي أشتهيه
وفوق الذي في الهوى أرتضيه
تطيب الحياة لأنك قلبي
وأنك نبضي الذي أنت فيه

وإن بقيت لي من كلمة هنا فهي أن التعابير والجمل والتراكيب والصور تترادف إثر بعضها كما اللغة التي يكتب بها طلعت سقيرق فهو يتعامل مع اللون الشعري حسب الحالة ويكتب في أيها ودون تحيز لأي منها وذاك هو الجمال.



أمام تمثال الشهيد

يوسف العظمة

شعر الدكتورة نائلة الإمام

كنتُ أسعى
في دروبِ النملِ دونَكْ
فوقَ ظهري
صخرةُ العيشِ المريرِ
بينَ أغلالي وقهري
معجلاً تلفحُني شمس الرغيفِ
يتهاوى النملُ حولي
يا لأوراقِ الخريفِ
رفّةً في جفن وهمٍ
مُضغة في شِدقِ قبرِ

* * *

كنتُ في طيني أسعى
حينما حدّقتَ فيَّ
من عُلاكَ
فانتبهتُ
هاجني شوقٌ
إلى صدرِ البكاءِ
عادني عشقٌ قديمٌ
للسماءِ
فانتشلني من وحولي وغُثائي
وأعِرني من جناحِك
كلما ذرَّ رماداً واحترقْ
شقَّ أبراجَ الفضاءِ
فوقَ وكرِ الشمسِ






وشماً في جبينِ الكوكبِ

* * *

ها أنذا أجلتيكَ
شاخصاً من لامكانِ
شعَّ في وجهك صُبحٌ
وأضاءتْ نجمتانِ
من جحور
قتلت فينا المعاني
هل ترانا؟!
نحنُ أوراقُ الزمانِ
نحنُ ما شاؤوا لنا
لا من نشاءُ..
نحنُ أرقامٌ توالى
وثوان
هل رأيتَ القهرَ يمشي
في انكساراتِ الجبانِ؟!

* * *

سوفَ أمضي
مثلما صيفي تولَّى
وشتائي..
فأعرْني من لبوسِكْ
من حديدِ الخلدِ قامه
خوذةً سيفاً وهامه
ما أواري فيه نزفي
أتوارى فيه
من عصفِ الزمانِ
وانطفاءات العدمَ..

* * *

أيُّها الأعزلُ إلاَّ من إبائك
لو تثقفتَ







كأعرابِ فضائِكْ
ليسَ من عينٍ تقاوِمْ
يا هداكَ المخرَزَ
آفةُ العينِ البصيرةْ
عاهةُ الأيدِي القصيرةْ
ليسَ خطباً لا تراعِ
دنَّسَ الأغرابُ قدْسَكَ
حوَّمَ الغِربانُ قهْرَكَ
في هوائِك
لو تخفيتَ قليلاً
من حيائِكِ
صرتَ قاعاً تشربُ الماءَ الوفيرَ
لا تكنْ صُلباً فتُكسَرْ
لو تواريْتَ ذليلاً
في خبائِكَ
كنتَ للحِكْمَةِ ربّاً
ثاقِباً فذّاً خبيراً

* * *

قُمْ ترجَّلْ
نبني ما وشْوَشَتْكَ الريحُ
في خُضْرِ الروابي
حينما لاحتْ كفجرٍ
ميسلونٍ
صاعداً نحو الشعابِ
ها هنا الصمتُ يقولُ
في الذرى ما لا يُقالُ
شاشةُ الأفقِ الكبيرة
رجعُ أنَّاتِ الرصاصِ
وهديرُ الجمرِ في شَدْقِ المفاصِلْ
ها هي الآجالُ







في الأُفقِ تحومُ
ها هُنا القَلبُ
جناحاهُ يمينٌ قد تداعى
وشِمالُ
خَلفَ ظهره
من ظهيرِ الرومِ رومُ

* * *

كُلَّما حنَّتْ دِمَشْقُ
لصِباها
أقسمَتْ أنَّكَ
في العِشْقِ فتاها
كانَ فذّاً نابها
بينَ الرِّجالِ
لمْ يكنْ يُشْرِكُ في العِشْقِ سوايَ
كانَ إن قالَ فعَلْ
لمْ تُدجِّنْهُ المزارِعُ والمرابِعْ
لمْ يَكنْ يهوى الطوابعْ
والنياشينَ النفائِسْ
والعُروضَ العسكرية

* * *

أيُّها الشامِخُ فَرْعاً في السماءِ
فوقَ صَخْرٍ من جبينِ الكبرياءِ
أتَشَهّى في هواني
عَزْمَةَ النَدبِ السميعِ
روحَكَ الغَيرى
على قُدْسِ التخومِ
كمْ جُلِدْتُ
فأجِرْني
من بُطولاتِ البيانِ
وهُذاءاتِ البَديعِ...